# مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي

الدكتور محمد عبدو



# المحتويـــات

تقديـــم ........ ٧

تمهيـــد ........ ١١

## القسم الأول
## اشتمال العقائد على مقاصد ومصالح

**الفصل الأول : اشتمال العقائد على مقاصد وأسرار** ........ ٢١

أولاً : العقائد الشرعية مشتملة على مقاصد وأسرار ........ ٢١

ثانياً : فوائد الفصل ........ ٢٥

**الفصل الثاني : وضع العقائد الشرعية هو لمصالح العباد، والإيمان علم وعمل** ........ ٢٧

أولاً : العقائد ومصالح العباد في المعاش والمعاد ........ ٢٧

ثانياً : مصالح ومنافع التوحيد المقصود والإيمان المعتبر ........ ٣٣

ثالثاً : المعرفة وبيان مصالحها ........ ٣٨

رابعاً : العمل رديف الإيمان وتابعه ........ ٤٢

## القسم الثاني
## في الكلام على أركان الإيمان

**الفصل الثالث : في معرفة ذات الله تعالى** ........ ٥١

أولاً : مقام عوام الخلق ........ ٥٢

ثانياً : مقام العلماء ........ ٥٨

الفصل الرابع : في أسمائه تعالى وصفاته ........ ٨٧

أولاً : الأسماء الحسنى والصفات العليا ومقاصدهما الكبرى ........ ٨٨

ثانياً : البيان التفصيلي ........ ١٠٠

الفصل الخامس : في أفعال الله تعالى ........ ١٠٩

أولاً : في أن أفعال الله تعالى هل وضعت لعلل حكمية ومصلحية أم لا؟ ........ ١١٠

ثانياً : المقصود الأقصى من خلق الأفعال ........ ١٢٣

الفصل السادس : في السمعيات ........ ١٣٣

أولاً : في النبوة ومقاصدها ........ ١٣٣

ثانياً : في القضاء والقدر وأسرارهما ........ ١٣٩

ثالثاً : في مقاصد الإمامة وفوائدها ........ ١٤٥


## القسم الثالث
## في صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد وبيان الطرق التي تعرف منها المقاصد


الفصل السابع : في صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد ........ ١٥١

أولاً : في بيان ما يرجع إلى مقاصد الشارع في التكليف ........ ١٥٢

ثانياً : في بيان ما يرجع إلى مقاصد المكلف في التكليف ........ ١٧٠

الفصل الثامن : مقاصد العقائد وطرق معرفتها ........ ١٧٣

أولاً : مناهج الفرق في كيفية إثبات المقاصد ........ ١٧٣

ثانياً : كيفية إثبات أبي حامد لمقاصد العقائد ........ ١٧٦

خاتمــة ........ ١٨٣

المراجــع ........ ١٨٧

# تقديـــــم

الحمد لله الذي غمر أفئدة أوليائه بمقاصد كتابه، واستوفى هممهم بالتشوف إلى درك أسرار خطابه، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة معاني شرائعه، حتى أصبحوا من عظيم ما اطلعوا عليه، ومن جليل ما عرفوه في جنة عرضها السموات والأرض.

والصلاة والسلام على محمد سيد الأبرار، المجلل بمحاسن الأنوار، والمحلى قلبه بحقائق الأسرار، الذي أدرك أن معرفة الله تعالى أول الأوائل، وأن الاطلاع على معاني صفاته، والحكمة في أفعاله أم الفضائل، وعلى آله وأصحابه الذين جروا على منهاجه، واتسموا بسماته، فتراهم لا يطبعون إلا على غراره، ولا يضربون إلا على قالبه.

أما بعد؛ فإن أهم ما صرف إليه العبد عمره، وأنفق فيه وقته ودهره الاشتغال بما هو ذريعة إلى نيل غايات النعيم، والقرب من رب العالمين قرباً ليس بالمكان؛ وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الإمكان. وكمال العبد؛ إنما هو بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة صفاته وأفعاله، وتدبيره في مملكته. لكن ليس يعرف الله تعالى، ويعرف صفاته وأفعاله من لم يعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ولم يطلع على مقصود الصفات العليا والأسماء الحسنى وغايتها، ولم يدرك سر الأفعال وعلتها.

فما عقيدة من هذه العقائد الشرعية التي تعبد الله سبحانه الخلق بها لصلاحهم في الدين والدنيا، إلا وتحتها رموز وإشارات إلى معان جلية، ومقاصد كثيرة خفية، يدركها المتأمل في محاسن العقيدة.

فمن عرف العقائد هذه المعرفة؛ فهو الذي يقرب من الله تعالى قرباً بالمعنى والحقيقة، وهو الذي يقال فيه: إنه عرف الله تعالى حق معرفته، وهو الذي يكاد زيت إيمانه يضيء **﴿ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾**(*).

ومن لم يعرف معانيها، أو يتفطن لمقاصدها، فكيف يعتقد صدق قائلها فيها؟ وربما يقيم على شيء سنين وأزماناً مما يفسد عليه إيمانه وتوحيده، ويخرجهما عن كونهما واقعين على وفاق المقصود.

فلا جرم يكون صرف الهمة إلى هذه المقاصد، وتضييع الزمان في الفحص والتفتيش عنها أمراً محتوماً لا محيص عنه لمؤمن.

بل أزيد على هذا فأقول: إن الباعث على انقياد العباد للتكاليف الإيمانية، والإذعان لمقرراتها؛ إنما هو اطلاعهم على معانيها وخواصها، وأسرارها ونكاتها، وهذا مألوف عادة وشرعاً.

ولمثل هذا؛ وجب ذكر محاسن العقيدة، وذكر لطائف معانيها، وكون المصلحة المندرجة فيها مقصودة للشارع الحكيم، وذلك بقصد التمكين لها في النفوس، وتقريرها على مواردها.

ولم يزل النبي (ﷺ) من مبدأ أمره، إلى نهاية عمره، يتلطف بالخلق، ويستميلهم إلى الحق، ويرشدهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم، بتعريفه إياهم بربهم تبارك وتعالى، وتعليمهم حقائق التوحيد، والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق صفاته عز وجل الباقيات، وأسمائه التامات... تعليماً يتجه، أول ما يتجه، إلى مقاصد هذه الأمور ومحاسنها، وما اشتملت عليه من الحكم الحسنة، والفوائد المستحسنة، والغايات المحمودة التي تدل على حكمته تعالى البالغة.

وحوله صلى الله عليه وسلم، صحابته الكرام، أعرف الناس بمعاني تلك الاعتقادات ومقاصدها، وأحراهم بالوقوف على كنهها ودرك أسرارها، فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعاصروا النبي (ﷺ)، بل لازموه آناء

---

(*) **القرآن الكريم**، «سورة النور،» الآية ٣٥.

الليل والنهار، مشمرين لفهم كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به **أولاً**، ولاتباع سبيله في الرفق بالخلق والإحسان إليهم، بإرشادهم إلى مقاصد عقائدهم المقربة لهم إلى الجنة ورضاء الخالق **ثانياً**.

هكذا كان الأمر في طول عصرهم، إلى آخر أعمارهم، ثم جاء من بعدهم فريقان: فريق عدل عن طريقهم، وحاد عن منحاهم، فتكلموا على هذه العقائد القرآنية من غير ذكر لحكمها وغاياتها، وأوردوها مجردة عن أسرارها ومقاصدها، فلا يزال الناظر في ما سطروه في تصانيفهم وأودعوه، وما خطته أيمانهم وكتبوه، عليل الفؤاد والصدر، كليل الذهن والفكر.

وفريق هم أئمتنا الأخيار، وعلماؤنا النظار الذين سلكوا مسلك أولئك السادة الأكابر، ليس من حيث الجاه والاشتهار، بل من حيث الغوص على المعاني والاطلاع على الأسرار، فعظموا من شأن هذا الفن ما أذن الله من تعظيمه، واحتفلوا به بما شاء الله من الاحتفال.

وإن من أيسر ما يتوصل به إلى معرفة مقاصد العقائد؛ من التصانيف التي تصدت لبيانها، تصانيف الإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)، بحر المكارم، وحبر الأكارم، له مزية الرفعة، ورفعة المزية، دليل ما ترك الأول للآخر شيئاً، وبرهان كم ترك الأول للآخر. فإنه رحمه الله صنف تصانيف سال أتيها، وتواليف طفحت أواذيها، جاء فيها بالآيات المحكمة، والبينات القيمة، ذكر فيها من مقاصد العلوم العقيدية ما لا يستغني عنه سالك ظواهر السبل الشرعية، وجعلها مطرزة بمحاسن الأسرار، وموشحة بلطائف الحكم والأنوار.

وأنا رافع الغطاء في هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى، عن فكر أبي حامد في مقاصد العقائد، حتى تتضح جلية الحق فيه، اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه.

وكنت قد أنجزت في إطار دبلوم الدراسات العليا (الماجستير)، بحثاً شبيهاً ببحث هذا الكتاب، تحت إشراف أستاذي الدكتور أحمد الريسوني ـ فسح الله في مدته ـ سميته «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي». وقد رأى أستاذي الكريم، أن أضم إلى ذلك البحث، بحثاً آخر، يقع من الأول موقع التكملة والصلة له، أدرس فيه فكر أبي حامد في مقاصد العقائد، لما في ذلك من عظيم الفائدة، وجليل العائدة.

وهذا الكتاب من أهم ما ينبغي للطالب الخوض فيه. وقد رتبته على ثلاثة أقسام، قدمت لها تمهيداً يوصل إليها، ويرشد إلى بعض المعاني التي تشتمل عليها، وعقبتها بخاتمة، وسميته **مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي**، واقتصرت فيه على المهم الذي يحصل به الغرض.

فأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، الهداية والتوفيق، إنه بإجابة داعيه حقيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

**د. محمد عبدو**

**الرباط، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٢**

# تمهيـــد

## أولاً: في بيان إمامة أبي حامد في المقاصد

كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ فإن هذا الكتاب يجري مجرى التتمة لبحثي السابق الموسوم بـ «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، حيث انتدبت فيه إلى بيان فكر أبي حامد في مقاصد الأحكام الشرعية.

وهذا الكتاب يتناول مجال العقيدة، فهو إذن؛ كالصلة والتكملة له.

ولأجل جريانه من البحث الأول هذا المجرى، فقد أوردت فيه أشياء لم يسع إيرادها في ذلك البحث، إما لذهولي عنها، أو لأنه قد صرفني عن ذكرها صارف.

وكنت قد أوضحت في البحث السابق، بالأدلة الشافية، إمامة أبي حامد في مقاصد الشريعة، وأنه بلغ فيها مبلغاً لا يدرك شأوه، وارتقى إلى مقام لا يشق فيه غباره. وبينت هناك أن هذا الحكم ليس اتفاقياً ولا جزافياً، وأن المعتمد إنما هو أني استقريت تصانيف أبي حامد الغزالي المطبوعة استقراء تاماً، فألفيت همته مصروفة إلى استنباط معاني الشريعة ومقاصدها، وتوجيه عنان الفكر إلى أسرارها وحكمها.

وهذا الحكم؛ وهو أن أبا حامد فحل الفحول في علم المقاصد، يشاطرني فيه بعض الشيوخ.

منهم جامع «رسائل حجة الإسلام» الذي وصف الغزالي بأنه كان «خزانة لأسرار الشريعة»[1].

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام** (تونس: الدار =

ونص العلامة ولي الله الدهلوي على أن الغزالي من علماء السلف الذين استنبطوا أسرار الشريعة، وأنه أتى بنكت لطيفة، وتحقيقات شريفة[2].

وأكد الدكتور عبد المجيد تركي، أن الغزالي ذو قيمة كبيرة بين الرعيل الأول ممن أبدعوا علم مقاصد الشريعة[3].

وصرح أستاذنا الدكتور أحمد الريسوني ـ فسح الله في مدته ـ بأن لأبي حامد مكانة مرموقة في العناية بمقاصد الشريعة، وأن الخطوات التي خطاها، والمبادئ التي نقحها وحررها في هذا الفن ظلت هي المبتدأ والمنتهى لعامة الأصوليين الذين جاءوا بعده...[4].

وهكذا وكما يظهر من هذه الشهادات، فإن القاسم المشترك بينها كلها أنها تشهد لأبي حامد بإحراز قصبات السبق في مقاصد الشريعة من حيث التقعيد والتحقيق.

وهذا الكتاب، **مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي**، سوف يستظهر في توكيد إمامة أبي حامد الغزالي، لكن في مجال العقيدة، وأنه من العلماء الذين تزينت ببيان هذا الفن تصانيفهم، وأرخت الطول في تقرير قواعده تواليفهم.

ومن أوضح ما يستدل به من كلام أبي حامد على أن همته (رحمه الله) كانت مصروفة إلى تفرس معاني الملة، وأسرار الديانة، ما صرح به (رضي الله عنه) في كتابه **المستصفى**؛ حيث قال: «فصنفت كتباً كثيرة في فروع الفقه وأصوله، ثم أقبلت بعده على طريق الآخرة، ومعرفة أسرار الدين الباطنة، فصنفت فيه كتباً بسيطة ككتاب **إحياء علوم الدين**، ووجيزة ككتاب **جواهر القرآن**، ووسيطة ككتاب **كيمياء السعادة**[5].

---

= التونسية للنشر، ١٩٧٢)، ص ٢٥. وجامع هذه الرسائل هو أحد أقرباء حجة الإسلام، على ما ورد في مقدمة هذا الكتاب.

(٢) ولي الله الدهلوي، **حجة الله البالغة** (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٩٠)، مج ١، ص ٣٢.

(٣) عبد المجيد تركي، **مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية**، ترجمة عبد الصبور شاهين (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦)، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠ و٤٧٤.

(٤) أحمد الريسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي** ([بيروت]: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١)، ص ٣٧ و٤١.

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى من علم الأصول** (بيروت: دار العلوم الحديثة، [د. ت.])، ج ١، ص ٤.

## ثانياً: في ذكر أشياء مهمة تتعلق بتصانيف أبي حامد

الحديث عن تصانيف أبي حامد حديث ذو شجون. وكنت قد تكلمت عليها في بحثي «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، حيث تناولت جوانب مهمة تتعلق بها، وأنا الآن أذكر أموراً تناسب المقام، فأقول وبالله التوفيق:

يمكن تصنيف كتب أبي حامد التي تطلب منها حقيقة العقيدة وأسرارها إلى أربعة أصناف[٦]:

**الصنف الأول**: تناول فيه الإمام الغزالي أدلة العقيدة، وهي الرسالة القدسية، وهي أحد فصول كتاب قواعد العقائد من **الإحياء**.

**الصنف الثاني**: تناول فيه أدلة العقيدة مع زيادة تحقيق، وزيادة تأنق في إيراد الأسئلة والإشكالات. وقد أودعها أبو حامد كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد**، وهو كتاب مفرد برأسه، يحوي لباب علم المتكلمين، ولكنه أبلغ في التحقيق، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة من الكلام الرسمي الذي يصادف في كتب المتكلمين.

**الصنف الثالث**: يستنشق الطالب في هذا الصنف روائح المعرفة، فإن أراد مقداراً يسيراً منها صادفه مبثوثاً في كتاب الصبر والشكر، وكتاب المحبة، وكتاب التوحيد، وهي من جملة كتب **الإحياء**. ويصادف منها قدراً صالحاً يعرفه كيفية قرع باب المعرفة في كتاب **المقصد الأقصى في معاني أسماء الله الحسنى**، ولا سيما في الأسماء المشتقة من الأفعال.

**الصنف الرابع**: تضمن هذا الصنف صريح المعرفة بحقائق العقيدة من غير مجمجة ولا مراقبة. ولا يصادف ذلك إلا في بعض كتب أبي حامد المضنون بها على غير أهلها. وليس يحق لكل واحد طلب هذا الكتاب.

قال أبو حامد يقرر ذلك: «وإياك أن تغتر وتحدث نفسك بأهليته، فتشرئب لطلبه، فتستهدف للمشافهة بصريح الرد؛ إلا أن تجمع ثلاث خصال:

**إحداها**: الاستقلال في العلوم الظاهرة، ونيل رتبة الإمامة فيها.

---

(٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٧.

**والثانية**: انقلاع القلب عن الدنيا بالكلية بعد محو الأخلاق الذميمة، حتى لا يبقى فيك تعطش إلا إلى الحق، ولا اهتمام إلا به، ولا شغل إلا فيه، ولا تعريج إلا عليه.

**والثالثة**: أن يكون قد أتيح لك السعادة في أصل الفطرة، بقريحة صافية، وفطنة بليغة، لا تكل عن درك غوامض العلوم ومشكلاتها على سبيل البديهة والمبادرة؛ فإن البليد إذا أتعب خاطره، وأكد نفسه ربما أدرك بعض الغوامض أيضاً، ولكن يدرك منها شيئاً يسيراً في مدة طويلة، فلن يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية إلا قلب صاف كأنه مرآة مجلوة؛ وإنما يصير كذلك بقوة الفطرة، وصحة القصد، ثم إزالة كدورات الدنيا عن وجهه؛ فإنه الرين والطبع يمنع الله به القلوب عن معرفته، و«﴿**أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾»[7].

وقد جاء أبو حامد بهذا المعنى أيضاً مصرحاً به في كتابه **جواهر القرآن ودرره**؛ حيث قال ما لفظه: «وهذه العلوم الأربعة، أعني: علم الذات، والصفات، والأفعال، وعلم المعاد، أودعنا من أوائله ومجامعه القدر الذي رزقنا منه، مع قصر العمر وكثرة الشواغل والآفات، وقلة الأعوان والرفقاء، بعض التصانيف لكنا لم نظهره؛ فإنه يكل عنه أكثر الأفهام، ويستضر به الضعفاء وهم أكثر المترسمين بالعلم، بل لا يصلح إظهاره إلا على من أتقن علم الظاهر، وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس، وطرق المجاهدة، حتى ارتاضت نفسه، واستقامت على سواء السبيل، فلم يبق له حظ في الدنيا، ولم يبق له طلب إلا الحق، ورزق مع ذلك فطنة وقادة، وقريحة منقادة، وذكاء بليغاً، وفهماً صافياً. وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات»[8].

وكما يتضح من هذا الكلام؛ فإن أبا حامد لم يسم هذا الكتاب. لكن قد ورد في بعض كتبه إشارات تدل على أنها من مصنفاته المضنون بها على غير أهلها، مثل كتاب **سر العالمين وكشف ما في الدارين**، الذي قال فيه الغزالي: «وهو كتاب عزيز لا يجوز بذله؛ لأن تحته أسراراً تفتقر إلى كشف؛ إذ طباع

---

(٧) انظر: المصدر نفسه، ص ١٧، **والقرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٢٤.

(٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٢٩ ـ ٣٠.

العالم نافرة عنها، وتحته علوم عزيزة، وإشارات كثيرة دالة على غوامض الأسرار، لا يعرفها إلا فحول الحكماء»[9].

ومن الكتب التي ضن بها الغزالي على غير أهلها أيضاً كتاب **معارج القدس** الذي ختمه أبو حامد بقوله: «وقد كشفت الغطاء عن وجوه الأسرار المخزونة، ورفعت الحجاب عن كنوز العلوم، ودللت على الأسرار المخزونة، وأبديت فيه العلوم المكنونة المضنون بها، تقرباً إلى الإخوان الذين لهم قوة القريحة، وصفاء الذهن، وزكاء النفس، ونقاء الحدس، وتيقناً بأن الزمان قد خلا من الوارثين لهذه الأسرار تلقفاً... ثم إني حرمت على جميع من يقرؤه من الإخوان الذين لهم المناسبة العلوية، والقريحة الصافية أن يبذله لنفس شريرة أو معاندة، أو يطلعها عليه، أو يضعه في غير موضعه... فإن أذاع هذا العلم وأضاعه فالله بيني وبينه وكفى بالله حسيباً»[10].

ومن تواليف أبي حامد المضنون بها كذلك كتابه الذي سماه: **المعارف العقلية**؛ حيث جاء في خاتمته: «وهذا القدر الذي كتبنا، وذكرنا في هذه الأوراق نخبة أسرار غير مكتوبة، وإشارات مكنونة، ورموز مستورة...» إلى أن يقول: «فالأسرار واجب صرفها عن الأغمار»[11].

فهذا من أبي حامد تنبيه على أصناف الكتب التي تطلب منها أسرار العقيدة الإسلامية وحقائقها.

على أني لم أكتف في دراسة فكره (رضي الله عنه) **في مقاصد العقائد** بهذه الكتب، بل ضممت إليها تصانيف حساناً، وتواليف ذات شأن. وذلك لأنه لا يمكن الوقوف على رأي حجة الإسلام في هذا المجال، ما لم نقف على منتهى فكره فيه. والوقوف على منتهى فكره إنما بسبر غور كتبه، ودراسة تواليفه. إذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه الدارس من صوابه وخطئه وإغفاله حقاً.

فليس من سبر أغوار تلك الكتب فرأى فيها عجائبه، ودرس مضامين تلك

---

(٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **سر العالمين وكشف ما في الدارين**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٦ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٣.

(١٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(١١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المعارف العقلية**، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان (دمشق: دار الفكر، [١٩٦٣])، ص ١٠٨ ـ ١١٠.

التصانيف وهو من أهلها، فرأى فيها غرائبه كمن قصر في ذلك. فهذا يحكم عن تحقيق وبصيرة، والآخر يحكم حكماً مجملاً غير مدرك بالبصيرة والتحقيق.

علاوة على هذا؛ فإن الغالب الأكثري من تصانيف الإمام الغزالي ـ وهذا قد جربته في بحثي السابق ـ يخدم بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، وأن لها عند جمعها من التأثير في الأفهام، في إصدار الأحكام، ما ليس لآحادها المفرقة.

وإذا ثبت هذا؛ فالضرورة قاضية بتتبع أفكار الغزالي في مقاصد العقائد في تواليفه كافة، وتعقبها في تقاييده كلها، وكذلك فعلت بعون الله وحسن توفيقه.

ومن أهم الكتب التي وقفت عليها، كتاب **الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**، وكتاب **الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل**، وكتاب **الأربعين في أصول الدين**، وكتاب **إلجام العوام عن علم الكلام**، وكتاب **فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام**، وكتاب **المعارف العقلية**، وكتاب **مدخل السلوك إلى منازل الملوك**، وكتاب **جامع الحقائق بتجريد العلائق**، وكتاب **كيمياي سعادت** فارسي، ومن رسائل حجة الإسلام، رسالة بعنوان: «جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمدان» في حكمة التكليف.

ومن مخطوطاته: «أجوبة الغزالي على أسئلة ابن العربي»...[١٢].

ولا بد قبل الشروع في بيان المقصود، من التنبيه إلى ثلاثة أمور:

**أحدها**: أن أبا حامد قد صرح في مواضع من كتبه باشتمال العقائد على معان وأسرار، لكن من غير شرح وبيان.

من ذلك ما ورد في كتاب آداب تلاوة القرآن من **الإحياء**؛ حيث قال ما نصه: «أما صفات الله عز وجل، فكقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾، وكقوله تعالى: ﴿**الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار**﴾، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين»[١٣].

---

(١٢) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «أجوبة الغزالي على أسئلة ابن العربي،» (مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم: ق ٥٥٥).

(١٣) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ٣٩٦، **والقرآن الكريم**: «سورة الشورى،» الآية ١١، و«سورة الحشر،» الآية ٢٣ على التوالي.

وهذا التصريح، فأين البيان؟

**والثاني: أن الإمام الغزالي كان لا يسترسل في الكشف عن الأسرار، فذلك قوله في كتابه المقصد الأسنى:** «ولنقبض هاهنا عنان البيان، فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له، وأمثال هذه الأسرار، لا ينبغي أن تبتذل بإيداعها الكتب»[١٤].

ومن هذا القسم أيضاً؛ ما ورد في كتاب «أسرار الصلاة ومهماتها» من **الإحياء**، حيث صرح أبو حامد بأن قصور أفهام الخلق «أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع»[١٥].

**والثالث**: أن الكثير من مصنفات أبي حامد ما زالت مفقودة، مثل كتاب «القربة إلى الله تعالى»، وكتاب «أسرار معاملات الدين»، وكتاب «المبادئ والغايات». . .

فلا شك في أن فقدان هذه الكتب، وإخفاء بعضها لاحتوائها على دقائق من العلوم والأسرار، وغيرها من الأمور التي يعتاص فهمها على العوام، وعدم التصريح بكل ما ينكشف من الأسرار والمقاصد يجعل الأحكام التي أصدرها على فكر أبي حامد في مقاصد العقائد أحكاماً نسبية.

لكن ليس هذا بمشكل؛ ذلك أن ما استخرجته من كتبه الموجودة بين يدينا كاف في بيان المقصود إن شاء الله تعالى.

فلأترك هذا؛ ولأنتقل إلى المقاصد والغايات.

---

(١٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ٣٨.

(١٥) «كتاب أسرار الصلاة ومهماتها،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٢٢٦.

# القسم الأول

## اشتمال العقائد على مقاصد ومصالح

# الفصل الأول

## اشتمال العقائد على مقاصد وأسرار

### أولاً: العقائد الشرعية مشتملة على مقاصد وأسرار

كلمات أبي حامد الغزالي - (رضي الله عنه) - متظاهرة على أن لله تعالى في العقائد الشرعية أسراراً وحكماً.

فمن ذلك ما ورد في «كتاب قواعد العقائد» من **الإحياء**؛ حيث قال عقيب ترجمته لعقيدة أهل السنّة في كلمتي الشهادة ما نصه: «فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها، وحكم طريق النضال عنها وحفظها، فأما إزالة الشبهة، وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة، فلا مفتاح له إلا المجاهدة، وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات...»[1].

وهذا الكلام من أبي حامد صريح في أن العقائد منطوية على أسرار، وأن في فهم معانيها مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر لفظها ليس منتهى الإدراك فيه.

ثم في هذا النص شيئان آخران:

---

(١) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ١٣٩.

**أحدهما**: أن أبا حامد قد بين لنا كيف تنحل أزرار تلك الأسرار، وكيف تنكشف المعاني المقصودات في الاعتقادات، أعني تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، على ما يأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

**ثانيهما**: أن هذا الذي ذكره الغزالي، مع ظهوره، تحته مشكل. وبيانه: أنه يشير إلى أن لهذه العقائد ظواهر وأسراراً، بعضها جلي يبدو أولاً، وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة، والطلب الحثيث، والفكر الصافي، والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع؛ إذ ليس للشرع ظاهر وباطن، وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه[٢].

ولا انفصال عن هذا الإشكال؛ إلا بأن يظهر الغزالي الدليل، وينصب البرهان، حتى لا يبقى مجال احتمال، وتمكن التباس وهو: «اعلم أن انقسام هذه العلوم ـ يعني العقائد ـ إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء، ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع»[٣].

ثم إن الغزالي أردف هذا الكلام بشواهد من الأخبار والقرآن.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾[٤].

وأما الأخبار فكثيرة، ومنها:

١ ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً»[٥].

٢ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم

---

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٩.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٣.

(٥) الحديث أخرجه ابن حبان في **صحيحه** من حديث ابن مسعود بنحوه، انظر: أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في ذيل: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ١٣٩.

الناس على قدر عقولهم»[6]. ومنها أيضاً قوله عليه السلام: «ما حدث أحد قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم»[7].

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى»[8].

٤ ـ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[9].

قال أبو حامد يعلق على هذا الخبر: «فليت شعري إن لم يكن ذلك سراً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه، أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم؟ ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم»[10].

هذه الشواهد واضحة الدلالة على المقصود، وهي تزيل توهم من يتوهم أن العقائد غير منطوية على المعاني والأسرار، وليس في ما ذكره أبو حامد من الوهن، سوى ورود حديثين ضعيفين، على ما حققه صاحب **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**. وليس هذا بأمر يضر بإمامنا، ولا سبباً يعترض به على أفهامنا، إذ ليس في ما ذهب إليه أبو حامد شيء مما يخالف مقصود الشرع أو يعارضه، بل مشهود له من الشرع بشواهد قوية يضيق المقام عن سرد بعضها فضلاً عن جلها، وفي اعتبار السلف له نقل كثير.

ويشهد له أيضاً العلماء النظار؛ مثل أبي الوليد بن رشد؛ فإنه صرح بهذا المعنى في كتابه الذي سماه **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**؛ حيث قال: «وكثير من الصدر الأول قد نقل عنهم أنهم كانوا يرون أن للشرع ظاهراً وباطناً، وأنه ليس يجب أن يعلم بالباطن من ليس من

---

(٦) الحديث رواه العراقي في جزء من حديث أبي بكر ابن الشخير من حديث عمر أخصر منه. وعند أبي داود من حديث عائشة «أنزلوا الناس منازلهم». انظر: ابن الحسين العراقي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٠.

(٧) الحديث رواه العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ولمسلم في مقدمة **صحيحه** موقوفاً على ابن مسعود. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣.

(٨) الحديث رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢.

(٩) الحديث أخرجاه من حديث عائشة وأنس. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٠.

(١٠) انظر: الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» ج ١، ص ١٤٠.

أهل العلم به، ولا يقدر على فهمه، مثل ما روى البخاري عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»، ومثل ما روي من ذلك عن جماعة من السلف»[١١].

فهذا مثال واحد ينبه إلى أن العقائد الشرعية عند أبي حامد مشتملة على مقاصد وأسرار.

وإن تشوف أحد إلى مزيد تحقيق في هذا المعنى؛ فقد صرح حجة الإسلام في كتابه **الأربعين في أصول الدين** بما نصه: «ووراء هذه العقيدة الظاهرة رتبتان، **إحداهما**: معرفة أدلة هذه العقيدة من غير خوض على أسرارها، و**الثانية**: معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها»[١٢].

هذا النص كالنص الذي قبله سواء؛ مؤكد أن الغزالي قد ألبس هذه العقائد لباس المقاصد والحكم، وكساها كسوة المعاني والأسرار.

وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر، ولكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً.

ثم لي في هذا المقام كلام آخر يؤكد أن ما صرح به الإمام الغزالي من أن الوقوف على مجرد لفظ العقائد ليس بأولى من التفتيش عن كنه معناها ولبابها وغاياتها، لم يخرج عن كونه حقاً، وهو النظر بعين الاعتبار، وإيضاحه: أني ذكرت في الكلام على الأمور الإرادية، أعني العبادات والعادات، في بحثي الموسوم بـ «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، أنها ذكرت عن سر إلهي فيها، ومقصود رباني مندرج تحتها[١٣].

فلأن تكون العقائد الإيمانية التي «هي المقصد الأقصى من علوم القرآن»[١٤]،

---

(١١) انظر: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل (الدين والمجتمع)**، إشراف محمد عابد الجابري، سلسلة التراث الفلسفي العربي: مؤلفات ابن رشد؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)، ص ١٠٠.

(١٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٦.

(١٣) انظر: محمد عبدو، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط)، ص ٤٧ وما بعدها.

(١٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٥٨.

وبها دخول الجنان، والنزول جوار الرحمن كذلك، أولى وأحرى أضعافاً مضاعفة.

بل أزيد على هذا، فأقول: إن العقائد الشرعية يجب أن يعلمها المكلف بأسرارها ومقاصدها ومعانيها، فربما هو مقيم على شيء سنين وأزماناً مما يفسد عليه اعتقاده، ويخرجه عن كونه واقعاً على وفاق المقصود، وهو لا يشعر بذلك.

فلم يبق ـ إذن ـ إلا المراقبة لهذه الأسرار والمقاصد، عند الخوض في العقائد وملاحظتها بالعين الكالئة. والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه.

## ثانياً: فوائد الفصل

ويشتمل على فائدتين:

**الفائدة الأولى**: قد يبدو أن قصد أبي حامد في الأمثلة التي ذكرتها، يتوجه إلى رفع ظواهر العقائد وتجريد النظر إلى بواطنها. ولا ينبغي أن يكون كذلك، فإن الإمام الغزالي يسلك في كل الأمور مسلكاً وسطاً، وينتهج منهجاً [illegible]، فلا هو بالحشوي فيجرد الظاهر ويجمد عليه، ولا هو بالباطني فيصرف الألفاظ عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، كدأب الباطنية في التأويلات، فإنهم يصرفون ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا تسبق منها إلى الفهم فائدة.

وقد يتبين هذا المعنى مما يقوله أبو حامد في كتابه الذي سماه: **مشكاة الأنوار**؛ فإنه قال بعد كلام: «لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة مني في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها... حاشا لله، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا الموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما إن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل»[15].

**الفائدة الثانية**: أورد الإمام الغزالي في «كتاب التوبة» من **الإحياء** كلاماً

(15) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **مشكاة الأنوار**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٣٠.

جيداً، قال فيه: «الذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى، يلحظ المعاني أولاً، فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي؛ فإنها وضعت دالة على المعاني، فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع، ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل»[١٦].

ومن وقف على ما كتبته، تبين له أنني من هذا الأصل نظرت، فقد وظفت لفظة المقاصد من غير أن ترد في كلام أبي حامد الذي أوردته، وذلك لأن الألفاظ التي وظفها أبو حامد مثل: «الأسرار» و«المعاني» و«الباطن» تصب هي ولفظة المقاصد في واد واحد، وتتوارد على معنى واحد.

وقد غلب في تصانيف أبي حامد استعمال الأسرار والمعاني في معنى «المقاصد».

وكذلك قد يرى أن أبا حامد يعبر عن «المقاصد» بـ «الحكم» و«اللباب»، و«الجواهر» و«الدرر» و«الأغراض». ولعلني أشير إلى بعضها بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١٦) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٨٧.

# الفصل الثاني

## وضع العقائد الشرعية هو لمصالح العباد، والإيمان علم وعمل

### أولاً: العقائد ومصالح العباد في المعاش والمعاد

تشتمل هذه الفقرة على بيانين: **أحدهما** جملي، **والثاني** تفصيلي.

ما البيان **الأول**؛ وهو **البيان الجملي**: فأبين فيه بطريق الإجمال، كون عقائد عند حجة الإسلام موضوعة لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً، ...ث قوله في كتاب **المنقذ من الضلال والمفصح عن مواهب ذي العزة** ... **جلال**: «فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق ... فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار»[1].

وقد أتى بمثل هذا أيضاً مصرحاً به في «كتاب قواعد العقائد» وهو من ... كتب **الإحياء**، حيث قال ـ (رضي الله عنه) ـ ما نصه: «والناس متعبدون ... العقيدة التي قدمناها، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم، ... السلف الصالح عليها»[2].

فقد تبين من هذين القولين أن علة تكليف الله تعالى عباده بهذه العقائد،

---

(1) ... حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال** ([د. م.]: دار العلم للجميع، ...)، ص ٣٢.

(2) ... حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» في: أبو حامد محمد بن محمد ... **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ١٣٧.

وسره ومقصوده كونها مسعدة لهم، جالبة لمصالحهم الدنيوية والأخروية.

وهذان البرهانان اللذان أوردتهما في هذه المسألة كافيان بحسب غرضي.

وكذلك من نظر في هذين القولين أدنى نظر تبين له على القطع، أن معتمد أبي حامد في تقرير هذا الأصل وتوكيده إنما هو استقراؤه الشريعة الإلهية، وعنه العبارة بقوله: «كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار»، وهو منهج مبين، بل مسلك متين يفيد برد اليقين وعلم اليقين.

وهذه الحقيقة التي قررها أبو حامد تشهد لها وتشد أزرها الآيات البينات، فإن القرآن الكريم يشير إليها في أكثر سوره، ويكررها في غالب قصصه وأمثاله. يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبر، فإنه لا يتكلم على الإيمان مثلاً، إلا وأردفه بما يلحق صاحبه من المصالح الشريفة الباهرة، ولا يذكر التوحيد إلا وذكر معه ما يجلبه من المنافع الفاخرة، وذلك في الحال والمآل.

وقد وقع لأبي حامد في الكلام على مصالح الإيمان والتوحيد ومنافعهما شيء جيد، فلنذكر منه طرفاً، وهو: **البيان التفصيلي**، فأقول: بلغ كلام أبي حامد في تحقيق مصالح الإيمان والتوحيد، وبيان منافعهما وفؤائدهما الغاية القصوى، كما يتضح في الأمثلة التالية:

المثال **الأول** ما أورده في كتابه الذي سماه **منهاج العابدين في معرض** حديثه عن أفعال الله عز وجل ومعاملاته، فذلك قوله: «وأما من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج، ومن الذي يعرف غايتها أو يعرف وصفها ونهايتها؟ فإنه الذي يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعة، قال الله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾»[٣].

ثم ضرب الإمام أبو حامد في عقبه مثالين:

أما **أحدهما** فقوله: «أما ترى في أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه، وحلفوا بعزة فرعون عدوه، فما كان إلا أن رأوا آية موسى (عليه السلام) فعرفوا الحق فقالوا: ﴿**آمنا برب العالمين**﴾[٤] ولم يذكر أنهم زادوا عليه عملاً، ثم

(٣) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٤٩، و**القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٣٨.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٢١.

انظر كم كرر ذكرهم في معنى المدح في كتابه العزيز، وكم كبائر وصغائر غفرها لهم بإيمان ساعة بل لحظة؟ فما قالوا إلا أن آمنا برب العالمين عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف، ثم كيف جعلهم رؤوس الشهداء في الجنة أبد الآبدين. فهذا حال من عرفه ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد، فكيف حال من أفنى عمره في توحيده، ولا يرى لذلك أهلاً في الدارين غيره؟»[5].

وأما **ثانيهما**: فيخص أصحاب الكهف، ولفظه: «أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم ﴿**إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً**﴾، والتجأوا إليه كيف قبلهم ووهب لهم، ثم أعزهم وأكرمهم فقال: ﴿**ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾، وكيف أعظم لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول لأكرم الخلق عليه: ﴿**لو اطّلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً**﴾، بل كيف أكرم كلباً تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات، ثم جعله معهم في الدنيا محبوباً، ويدخله الجنة في الآخرة مكرماً. فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياماً معدودة من غير عبادة أو خدمة، فكيف فضله مع عبده المومن الذي خدمه ووحده وعبده سبعين سنة، وكيف لو عاش سبعين ألف سنة فكان قاصداً للعبودية؟»[6]

المثال **الثاني** ما صرح به أبو حامد في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء** من أن الإيمان بالله تعالى يفضي بصاحبه إلى الملك الدائم المخلد، وذلك في الدنيا والآخرة: «أما ملك الدنيا، فالزهد فيها، والقناعة باليسير منها، وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه، وعزاً لا ذل فيه، وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس»[7].

ويتضمن المثال **الثالث** بيان منافع التوحيد، فمنافعه عامة، تشمل المستحق وغير المستحق، وتعم المؤمن والمنافق، فأما المنافق فإن توحيده

---

(٥) انظر: الغزالي، المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) انظر: المصدر نفسه، ص ١٥٠، و**القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآيتان ١٤ و١٨ على التوالي.

(٧) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ١٠٢.

يصون بدنه وماله عن سيف الغزاة، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب، وأما المؤمن فبخلود الجنان، والنزول جوار الرحمن[8].

فقد تبين من هذا ما في التوحيد والإيمان من مصالح جليلة، ومنافع غير قليلة.

وفي **الإحياء** وغيره من هذا كثير، فمن تشوف إلى البسط ومد الباع وشفاء الغليل، ففي **الإحياء ما يغنيه.**

وصريح القرآن ناطق بصحة هذا الكلام، أعني ما يتضمنه الإيمان والتوحيد من خير الدنيا والآخرة.

فمن ذلك: النجاة والنجاح، قال الله تعالى: ﴿**ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين**﴾[9]، وقال تعالى خبراً عن يونس (عليه السلام): ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**﴾[10].

ومنها: الثبات على الأمر، قال تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾[11].

ومنها: كشف العذاب، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾[12].

ومنها: النصر على الأعداء، قال عز وجل: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة**﴾ إلى قوله ﴿**وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا**﴾[13].

ومنها: الاستخلاف في الأرض، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿**وعد الله**

---

(٨) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: «كتاب التوحيد،» ج ٤، ص ٣٢٧، و«كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤١٤، في: المصدر نفسه على التوالي.

(٩) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ١٠٣.

(١٠) المصدر نفسه، «سورة الأنبياء،» الآيتان ٨٧ ـ ٨٨.

(١١) المصدر نفسه، «سورة إبراهيم،» الآية ٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، «سورة يونس،» الآية ٩٨.

(١٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآيتان ٢٥ ـ ٢٦ على التوالي.

الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[١٤].

ومنها: التقدم على الناس والإمامة، قال تعالى: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾[١٥]، وقال سبحانه في صفات عباد الرحمن: ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً**﴾[١٦].

ومنها ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجاً عن أوهام الخلق وإعدادهم وتحصيلهم، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله عز وجل: ﴿**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا**﴾ إلى قوله: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾[١٧].

فسبحانه من إله سيد ماجد ما أكرمه، وكل هذه الكرامات في الدنيا والآخرة يعطيها عبده على توحيد ساعة، فبان أن خير الدنيا والآخرة في التوحيد والإيمان.

وأيضاً؛ فإن هذا الذي ذهب إليه الغزالي رحمه الله، وانتظمته الآيات أحسن انتظام، قد رأيته صرح بمعناه طائفة من العلماء النظار.

مثل الحكيم الترمذي؛ فإنه قال بمناسبة كلامه على علة الإقرار بالتوحيد في كتابه: **إثبات العلل** ما نصه: «صير الله تبارك وتعالى اسمه هذه الكلمة قسمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فحرمة الدم والعرض والمال، وأما في الآخرة فإن كان مسيئاً فمر على حد النقمة، فنالته ألسنة النار وشرورها ولهبها، ونوديت النار أن لا سبيل لك على لسانه الذي كان مخرجه توحيدياً»[١٨].

---

(١٤) المصدر نفسه، «سورة النور،» الآية ٥٥.
(١٥) المصدر نفسه، «سورة السجدة،» الآية ٢٤.
(١٦) المصدر نفسه، «سورة الفرقان،» الآية ٧٤.
(١٧) المصدر نفسه، «سورة السجدة،» الآيتان ١٥ و١٧ على التوالي.
(١٨) أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، **إثبات العلل الشرعية**، تحقيق ودراسة [illegible]ـري (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٨)، ص ٨٠.

وذكر الفقيه الحنفي أبو عبد الله البخاري (ت. ٥٤٦) في كتابه الذي سماه **محاسن الإسلام وشرائع الإسلام** نبذة من محاسن الإيمان بالله تعالى، منها: «نعيم النور عند ظلمة القبور، قال الله تعالى: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾[١٩]. فنقول: لا إله إلا الله نور، لكنه في عالم الغيب، فإذا رفع حجاب الغيب ظهر نوره، قال الله تعالى ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم**﴾[٢٠]، وقال خبراً عن المنافقين ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾[٢١] فنور هذه الكلمة شعار المسلمين يوم القيامة. قال الله تعالى ﴿**إذا الشمس كورت**﴾[٢٢]، وقال ﴿**وجمع الشمس والقمر**﴾[٢٣]، أي في فوات النور عنهما فبقيا بلا نور لاستغناء المسلمين بنور لا إله إلا الله عن نور الشمس والقمر، وأهل الكفر هم في ظلام كفرهم»[٢٤].

ومن هذا القسم أيضاً ما صرح به الإمام ابن عبد السلام في كتابه الذي لم يصنف في فنه مثله في التحقيق والتحصيل، والإحاطة بجميع التفاصيل، الموسوم بـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، فإنه قال: «وقد سئل عليه السلام أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان بالله»، قيل ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل ثم أي؟ قال: «حج مبرور»، جعل الإيمان أفضل الأعمال لجلبه لأحسن المصالح ودرئه لأقبح المفاسد مع شرفه في نفسه وشرف متعلقه، ومصالحه ضربان: **أحدهما**: عاجلة وهي إجراء أحكام الإسلام، وصيانة النفوس والأموال والحرم والأطفال، **والثاني**: آجلة وهو خلود الجنان ورضاء الرحمن»[٢٥].

وأكتفي بهذا القدر، فإن الموضع لا يحتمل أكثر منه.

---

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة النور،» الآية ٣٥.

(٢٠) المصدر نفسه، «سورة الحديد،» الآية ١٢.

(٢١) المصدر نفسه، «سورة الحديد،» الآية ١٣.

(٢٢) المصدر نفسه، «سورة التكوير،» الآية ١.

(٢٣) المصدر نفسه، «سورة القيامة،» الآية ٩.

(٢٤) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **محاسن الإسلام وشرائع الإسلام** (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨م)، ص ٥.

(٢٥) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** (بيروت: دار المعرفة، [د. ت.])، ج ١، ص ٤٦ ـ ٤٧. والحديث، أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** في «كتاب الإيمان»، باب «بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال،» الحديث ٨٣، من حديث أبي هريرة (ﷺ)، ج ١، ص ٦٣.

## ثانياً: مصالح ومنافع التوحيد المقصود والإيمان المعتبر

مرت من النقول طائفة تروم الإفصاح عن منافع الإيمان والتوحيد وإيضاح فوائدهما ومصالحهما. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب ألا يظن أن هذه المصالح والكرامات والخيرات بإزاء تحريك اللسان بكلمة التوحيد من غير حصول معانيها في القلب.

ولنكشف عن هذا بذكر أمثلة؛ فإن الكشف والبيان يساعدان على الفهم.

ومن ذلك ما ورد في كتاب **ميزان العمل**، حيث قال أبو حامد عند قوله تعالى: ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾[٢٦]، ما لفظه: «وليس المراد تحريك عضلات اللسان بهذه الحروف، ولذا قال رسول الله (ﷺ): «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»، فإن تحريك الأطراف قليل الغناء إذا لم يكن مؤثراً في القلب، أو لم يكن صادراً عن أثر راسخ في القلب أوله اعتقاد يسمى إيماناً، ثم ينتهي ترتيبه إلى مثل إيمان أبي بكر الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح»[٢٧].

وقد أتى بمثل هذا أيضاً مصرحاً به في «كتاب التوبة» من **الإحياء**، بعبارته: «ولا يخرج من النار إلا موحد، ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة، فلا ينفع إلا في عالم الملك، فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدة الرقبة والمال مدة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال فلا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد، وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله»[٢٨].

وإلى هذا المعنى أيضاً الإشارة بقوله في «كتاب رياضة النفس» من

---

(٢٦) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٩١.

(٢٧) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **ميزان العمل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩)، ص ١٣٥. وحديث «من قال لا إله إلا الله»، أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٥، ص ٢٣٦، من حديث معاذ (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه لم يدخل النار ـ أو دخل الجنة»، وأخرجه الترمذي في جامعه كتاب **الدعوات**، باب ١٢٦، من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر»، قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوبة،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٩.

**الإحياء**: «ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرز، إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا»[٢٩].

ومن هذا الباب أيضاً ما صرح به أبو حامد في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء**، فإنه قال: «فالملك لا ينال بالحديث، وحركة اللسان حديث، وعقد القلب أيضاً حديث، ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون»[٣٠].

فهذا القدر من النصوص كافٍ في التنبيه على المقصود.

وقد رجع حاصلها إلى بيان أمرين:

**أحدهما** أن المكلف إذا علق دخوله الجنة ونيله للنعيم المقيم، والملك العظيم، على مجرد تحريك اللسان بكلمتي الشهادة كان في غاية البعد من المقصود.

الأمر **الثاني** ظاهر كلام أبي حامد مشير إلى أن التوحيد على درجات، فالدرجة القصوى فيه: أن يصير معنى لا إله إلا الله وصفاً لازماً للقلب غالباً عليه، والدرجة الأدنى: حركة اللسان.

لكن ليس هذا كل الدرجات فيه، فقد ورد في **إحياء علوم الدين** و**الأربعين في أصول الدين** و**فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام** ـ كلها تواليف أبي حامد، ما يشير إلى وجه المقصود.

وأقتصر على ما ورد في **الإحياء**، فقد صرح ـ رحمه الله ـ بأن التوحيد على مراتب، وله ظاهر يدركه الجميع، وهذا كقشر له، وله حقيقة هي كاللب، ولهذا اللب لب يمكن تشبيهه بالجوز؛ فإن له قشراً ولقشره قشراً، وله لب وللبه لب وذلك الدهن، فهي أربع مراتب[٣١]:

فالمرتبة **الأولى**: القول باللسان المجرد.

---

(٢٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب رياضة النفس،» في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٩.

(٣٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥٠.

(٣١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٦.

**والثانية**: الاعتقاد بالقلب جزماً، وهو درجة عوام الخلق.

**والثالثة**: وهي اللب، أن ينكشف بنور الله عز وجل حقيقة هذا التوحيد وسره بالحقيقة، وذلك بأن يرى الأشياء الكثيرة ويعلم أنها بجملتها صادرة عن الواحد القهار.

**والرابعة**: وهو لب اللب، أن لا يرى في الوجود إلا واحداً.

وإذ قد ذكر أبو حامد جملة هذه الدرجات؛ فإنه شرع عقيبها في ذكر حقيقة كل درجة، مبتدئاً فيها بالسفلى ثم ارتقى إلى العليا ليكون ذلك أشفى في البيان. فذلك قوله: «**فالأول**: موحد بمجرد اللسان ويعصم صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان، **والثاني**: موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة... **والثالث**: موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه. ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه. لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين... **والرابع**: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد. **فالأول** كالقشرة العليا من الجوز، **والثاني** كالقشرة السفلى، **والثالث** كاللب، **والرابع** كالدهن المستخرج من اللب»[٣٢].

وبيان حقائق مراتب التوحيد، يقتضي بيان مصالحها. ولم يكن هذا ليخفى على أبي حامد وهو من أسناد المقاصد وأثباتها. فقد ختم ـ رحمه الله ـ ذلك بكلام بليغ جداً يضمن التنبيه إلى مصالح كل رتبة ومفاسدها، فذلك أن التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر في الظاهر والباطن، لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت. والقشرة السفلى هي القلب والبدن. وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة؛ فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده، كما إن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا؛ فإنها تصون اللب

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٦.

وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً، لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾، وبقوله عز وجل: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾[٣٣]، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين، لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق»[٣٤].

فهذا سبيل كشف الحق في مراتب التوحيد ومصالحها. ولم يزل أبو حامد في هذا على جده، لم يزل عنه إلى ضده في الكتابين الآخرين، أعني **الأربعين وفضائل الأنام**[٣٥].

فإذا تبين لنا بهذه الجملة أن التوحيد على مراتب، وأنه يلحق كل رتبة منها ما يلحقها من المصالح والمنافع، فعسانا ندرك أن العبد ليس مخيراً فيها، بحيث يستمد منها ما وافق هواه، ويتبع فيها مناه، بل التوحيد المقصود والمعتبر الذي خلق له الخلق وأرسلت له الرسل وأنزلت لأجله الكتب هو المبين في الرتبة الأخيرة، وهو أن يذر العبد بالكلية غير الله تعالى والفطام عما سواه والتجرد له.

على أن عامة الناس الذين يقرون بالتوحيد غايتهم أن يجعلوا التوحيد الإقرار باللسان، من غير حصول صفة منه تتكيف بها النفس. وهذا التوحيد لا يوجب السعادة والنعيم والنجاة من العذاب الأليم، بل التوحيد المقصود ما وصفه أبو حامد، فهو الذي تجلب به المصالح الدنيوية والأخروية، وبه تنال الدرجات العلى، وبه تدفع الهموم والغموم، وبه عمارة الأرض ونيل سعادة القرب.

---

(٣٣) **القرآن الكريم**: «سورة الأنعام،» الآية ١٢٥، و«سورة الزمر،» الآية ٢٢ على التوالي.

(٣٤) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٣٥) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٤٤ ـ ١٤٥، و**فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام** (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢)، ص ٤٩ ـ ٥٤.

وهذا الذي أقره أبو حامد وذهب إليه هو الحق المبين، ومن أحاط علماً بنصوص الكتاب في تأصيل عقيدة التوحيد وتمهيد قواعدها ألفاها كذلك، ومن وقف على أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله، في حله وترحاله، يجد نصوصه في توكيد هذا المقصود متواترة متوالية، من مبدأ أمره إلى منتهى عمره.

وليتأمل المؤمن أحوال الصحابة (ﷺ)، ليعرف كيف كان الله غالباً على أمرهم، في قيامهم وقعودهم وعلى جنوبهم، لمعرفتهم بحقيقة التوحيد ومعانيه، وفهمهم لمقاصده ومغازيه. ثم ليقارن حال هذا السلف الصالح بحال عهد الخلف، ليرى كيف دب فيهم دبيب الجهل بمقاصد التوحيد، وقل علمهم بمعانيه، فضعف ـ التوحيد ـ في قلوب الكثيرين، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع اعتقاداً وعملاً، وتأولاً وجدلاً، فلا جرم أن ما هم عليه اليوم من سوء الحال ـ كما هو مشهود ومعلوم ـ سببه عدم فقههم بمعاني عقيدة التوحيد القرآني.

وبالجملة؛ فمن اعتقد أنه إذا تكلم بالشهادتين حصل له التوحيد المطلوب، فقد نادى على نفسه بالجهل بمقاصد العقيدة والشريعة.

هذا، ولم يكن أبو حامد متفرداً في ما ذهب إليه، فإن كتب أهل الأثبات والعلماء الثقات لا تخلو من إشارات إلى المقصود.

من ذلك ما أورده الإمام أبو عبد الله الحكيم الترمذي (ﷺ) في كتابه **نوادر الأصول**، فإنه قال: «فرأس نعم الدين نور التوحيد، معرفة بالقلب وشهادة باللسان أن لا إله إلا الله. ورأس نعم الدنيا هذا الجسد الذي هو قالب لهذه النعمة الفائقة للنعم... وأمرت بحسن مجاورة نعم هذين. فحسن المجاورة مع نور المعرفة أن لا تذكر كل شيء سواه، وأن لا تؤثر عليه أحداً، وأن لا تقرن بمشيئاته مشيئات النفس، وأن لا يلهيك الهوى عن الوله إلى الله تعالى في كل حالاتك. وحسن مجاورة الجسد أن لا تستعمل جارحة من جوارحك إلا له ولرضاه عز وجل»[٣٦].

ومن هذا القبيل ما ذكره الصدوق ابن بابويه القمي في الباب الذي سماه: «معنى قول لا إله إلا الله بإخلاص» من كتابه المعروف **معاني الأخبار**،

---

(٣٦) أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، **نوادر الأصول من أحاديث الرسول**، تحقيق عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢)، ج ٤، ص ١٤٧.

حيث قال: «عن أبي عبد الله قال: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه «لا إله إلا الله» عما حرم الله عز وجل»[٣٧].

ومما يستدل به على تقرير هذا المعنى كذلك؛ ما ذكره العلامة أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني الإباضي المتوفى عام ٥٧٠هـ، في كتابه **الدليل والبرهان**، حيث قال ما نصه: «ومعنى (لا إله) نفي وتبرئة، (إلا الله) إثبات وتحقيق، وتصديق وإيجاب... ولهذه الكلمات سبعة شروط: أن يقولها عن علم لا عن جهل ولا عن كره، وأن يقولها عن إخلاص لا عن شرك، وأن يقولها عن يقين لا عن شك، وأن يقولها مع العمل ولا يتكل عليها، وأن يقولها بقلبه ولسانه وجوارحه، وأن يقولها ابتغاء وجه الله، وأن يقولها مع التوبة من غير إصرار على ذنب، ويثبت عليها غير مغفول ولا مغير حتى يموت»[٣٨].

ومن هذا القسم أيضاً؛ ما صرح به العز بن عبد السلام في كتابه **الإمام في بيان أدلة الأحكام**؛ فإنه قال: «كلمة التوحيد تدل على التكليف بالواجب والحرام؛ إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله. والعبادة هي الطاعة مع غاية الذل والخضوع»[٣٩].

وفي تصانيف أبي حامد وغيره شواهد كثيرة، تدل على الدلالة نفسها التي وصفت، لم أستوفها، وتقصيها يطول. وفي ما نقلته كفاية، وفي ما عرضته بلاغ.

## ثالثاً: المعرفة وبيان مصالحها

ينعطف هذا المبحث على المبحثين السابقين انعطاف التتمة والتكملة لهما، وهو أيضاً كالتوطئة والتمهيد للقسم الذي يلي هذا.

أما أنه تتمة فظاهر من قول أبي حامد في «كتاب التوبة» من **الإحياء**؛ فإنه قال: «فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلك

---

(٣٧) أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، **معاني الأخبار** (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٩)، ص ٣٧٠.

(٣٨) أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، **الدليل والبرهان**، ط ٢ ([مسقط]: وزارة التراث القومي والثقافة؛ مطبعة الألوان الحديثة، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ٣٤٢.

(٣٩) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، **الإمام في بيان أدلة الأحكام**، تحقيق رضوان مختار بن عربية (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٧)، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

. يبن أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق»[٤٠].

فالمعرفة والإيمان يترادفان على معنى واحد، ولأجل ذلك؛ فإن الشرع عبر عن المعرفة التي هي أصل السعادات بالإيمان.

وقد عظّم أبو حامد (رحمه الله) من شأن المعرفة بالله تعالى وصفاته وأفعاله ما أذن الله من تعظيمه، واحتفل بها بما شاء الله من الاحتفال. فبيّن . مصالحها هي أشرف المصالح وأجلاها، وأن لذاتها هي أكمل اللذات وأعلاها، وأن خيراتها هي أبلغ الخيرات وأسناها.

وبيان مصالحها وفوائدها من وجوه، ينبه كل وجه منها إلى خاصية ومعنى.

**الوجه الأول**: في أن الاطلاع على أسرار الربوبية أعظم المعارف وألذها.

فبعد ما بين أبو حامد بالحجج النظرية أن العلم بالله تعالى هو ألذ العلوم وأشرفها وأطيبها، وأعلاها وأكملها وأعظمها؛ تخلص إلى القول: «فإن كنت لا تشك في ذلك، فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية، والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف بكمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار»[٤١].

فهذا النص يدل على أن معرفة أسرار الأمور الإلهية ألذ المعارف وأعظمها، . . لا لذة فوقها.

وهذا كثير وجوده في **الإحياء** وغيره، فليطلب في مواضعه.

**الوجه الثاني**: في بيان أنه كلما كثرت المعرفة بالعقائد وأسرارها كثر نعيمه وعظم.

ذلك لفظ قوله ـ رحمه الله ـ : «فإن المعرفة كالبذر، وبحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت، كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما . كما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن»[٤٢].

---

٤٠) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٣٣.
٤١) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.
٤٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٦.

وقد ورد في كتاب **الأربعين في أصول الدين** ما يعضد هذا الكلام، وذكرت بعضه لأستشهد به على أنه يكمن تحت هذه العقيدة الإسلامية أسرار ومقاصد في الفصل الذي قبل هذا، وها أنا أذكره بتمامه، وهو: «ووراء هذه العقيدة رتبتان: **إحداهما**: معرفة أدلة هذه العقيدة الظاهرة من غير خوض على أسرارها. **والثانية**: معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها. والرتبتان جميعاً ليستا واجبتين على جميع العوام، أعني أن نجاتهم في الآخرة غير موقوفة عليهما، ولا فوزهم موقوف عليهما، وإنما الموقوف عليهما كمال السعادة، وأعني بالنجاة: الخلاص من العذاب، وأعني بالفوز: الحصول على أصل النعيم، وأعني بالسعادة: نيل غايات النعيم»[٤٣].

**الوجه الثالث**: في أن معرفة الله سبحانه هي ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها.

كما هو معلوم؛ فإن الأشياء إنما تتبين بأضدادها، لأجل ذلك؛ فإن الغزالي عمد إلى مقايسة لذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية بلذة الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، قال: «من ذاق اللذتين جميعاً؛ فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرئاسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم، لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته، كونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصور الخلق عنها، وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين؛ فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة...»[٤٤].

وإذ قد تبين لنا بهذه الجملة ما في المعرفة من المنافع واللذات، فقد

---

(٤٣) الغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، ص ١٦.

(٤٤) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

بسعي أن نتبين أيضاً، أن هذا الكلام يضمن الإشارة إلى ثلاثة أمور بها ينقضي غنون في هذا الذي قصدته.

**الأمر الأول**: أن المصالح المبثوثة في العقيدة على ضربين:

**فضرب منهما**: هو الخلاص من العذاب والحصول على أصل النعيم لمن كان نظر عقله مقصوراً على صور العقائد وقوالبها الخيالية، ولم يمتد نظره إلى أرواحها وحقائقها، ولم يدرك أسرارها ومعانيها.

**والضرب الثاني**: وهو نيل غايات النعيم لمن فتق أصداف العقائد وطالع درها.

فبان بهذا أن كمال السعادة بقدر معرفة الله تعالى والاطلاع على أسرار الربوبية. فمن انكشف له ولو الشيء اليسير فنصيبه من السعادة بقدر معرفته واطلاعه.

**الأمر الثاني**: أن الإمام الغزالي يعبر عن المصالح التي تقترن بالمعرفة وتتحق بها باللذات، وهي كذلك على ما حققه غير واحد من الأئمة الأثبات، مثل الإمام فخر الدين الرازي، فإنه قال: «المصلحة لا معنى لها إلا اللذة وما يكون وسيلة إليها»[٤٥].

وكذلك قال العز بن عبد السلام في كتابه **قواعد الأحكام**: «المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها»[٤٦].

وإلى هذا المعنى أيضاً؛ ذهب العلامة أبو العباس أحمد بن سعيد عبد الواحد الشماخي الإباضي؛ فإنه قال في كتابه الذي سماه **مختصر العدل والإنصاف**: «والمصلحة اللذة وسيلتها. والمفسدة الألم وسيلته. وكل واحد إما نفسي أو بدني، دنيوي أو أخروي»[٤٧].

**الأمر الثالث**: أن هذه اللذات؛ التي في المعرفة بالله تعالى وصفاته

---

(٤٥) فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **المحصول في علم أصول الفقه**، تحقيق محمد جابر فياض العلواني ([د. م.]: مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٠ ـ ١٩٨١)، ج ٢، ق ٣، ص ٢٤٠.

(٤٦) ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، ج ١، ص ١١ ـ ١٢.

(٤٧) أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، **كتاب مختصر العدل والإنصاف** (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٤)، ص ٥٢.

وأفعاله، لذات معنوية، وهي وسيلة إلى لذات معنوية أعلى منها؛ وذلك القرب من الرحمن، وذريعة إلى لذات مادية؛ وذلك ولوج الجنان.

نسأله تعالى أن يوفقنا لمعرفته بمنّه وكرمه.

## رابعاً: العمل رديف الإيمان وتابعه

لقد قام البرهان قياماً لا يشك فيه على أن السعادة وراء الإيمان والمعرفة، وأن فيهما لذة لا تنال بالاستقصاء أطرافها، ولا تدرك بالتخيل والتصور أكنافها.

وإذا كان كذلك؛ فاعلم أن مذهب أبي حامد على أن الإيمان بمجرده غير كاف لنيل السعادة الأبدية، والقرب من الحضرة الإلهية، بل لا بد من تقديم حرث الآخرة والسعي لها.

وقد نبه أبو حامد إلى هذا المعنى في كتابه **ميزان العمل** حيث قال: «وأما من ظن أن مجرد الإيمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الإيمان. . . ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قوله: لا إله إلا الله دون تحقيقه بالمعاملة؛ كان كمن ظن أن الطبخ يحلو بقوله: طرحت السكر فيه دون أن يطرحه، وأن الولد يخلق بقوله: وطأت الجارية دون أن يطأها، والزرع ينبت بقوله: بذرت البذرة دون أن يبذرها. وكما أن هذه المقاصد لا تنال إلا بأسبابها، فكذلك أمر الآخرة؛ فإن أمر الآخرة والدنيا واحد، وإنما خصّ باسم الآخرة لتأخره»[٤٨].

فاستبان بما ذكره الغزالي ـ رحمه الله ـ أن العمل تلو الإيمان ورديفه، وأنه مهما رغب العبد في نيل السعادة ولم يكن معه إلا أصل الإيمان، ولم يساعده حاله، أو قصر في العمل فهو كساع إلى الهيجا بغير سلاح، أو كباز يروم الصيد بلا جناح.

وقد عبر التنزيل عن هذا المعنى بقوله: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً**﴾[٤٩].

وقال تعالى: ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾[٥٠].

---

(٤٨) الغزالي، **ميزان العمل**، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٤٩) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ١٩.

(٥٠) المصدر نفسه، «سورة النجم،» الآية ٣٩.

وعاضد هذا الكلام مصرح به في «كتاب ذم الغرور» من جملة كتب **إحياء علوم الدين**؛ حيث قال أبو حامد في أوجز ما يكون من العبارة: «ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز»[٥١]. ثم أتبع ذلك بشواهد أربعة من القرآن والأخبار.

فذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿**وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**﴾[٥٢].

وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾[٥٣].

ثم قال النبي (ﷺ): «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[٥٤].

وقال سبحانه: ﴿**والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[٥٥].

ثم قال أبو حامد عقيب إيراده لهذه الشواهد: «فوعد المغفرة في جميع ذلك منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده»[٥٦].

وكما نرى؛ فهذا الذي يقوله أبو حامد ليس من عنده، بل هو موقف مستمد من الشريعة الإسلامية، ومن الآيات البليغة في هذا المبحث؛ كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم**﴾[٥٧].

وهذا مما يكثر وجوده في القرآن.

فتبين بهذه الجملة أن الإيمان والعمل مقصودان جميعاً، ولأجلهما خلق الخلق، وأنزلت الكتب، وبعثت الرسل. وإذا أردت تحقيق ما ذكرته هنا، فمن حسبي أن أعمد إلى نص رشيق المعنى، جيد اللفظ، صحيح المبنى، أورده أبو

---

(٥١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب ذم الغرور،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٣، ص ٤٩٠.

(٥٢) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ٨٢.

(٥٣) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ٥٦.

(٥٤) الحديث المذكور متفق عليه من حديث ابن عمر. انظر: أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٤٩٠.

(٥٥) **القرآن الكريم**، «سورة العصر،» الآيات ١ ـ ٣.

(٥٦) الغزالي، «كتاب ذم الغرور،» ج ٤، ص ٤٩٠.

(٥٧) **القرآن الكريم**، «سورة محمد،» الآية ٢.

حامد في معرض كلامه على عقبة العلم من الباب الأول من كتابه **منهاج العابدين**؛ فإنه قال: «واعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين، ونظر الناظرين، بل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهن من الخلق. وتأمل آيتين في كتاب الله عز وجل؛ **إحداهما**: قوله جل ذكره: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾. وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم، لا سيما علم التوحيد. والآية **الثانية**: قوله جل من قائل: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾. وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها، فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين، فحق للعبد أن لا يشتغل إلا بهما، ولا يتعب إلا لهما، ولا ينظر إلا فيهما. واعلم أن كل ما سواهما من الأمور باطل لا خير فيه، ولغو لا حاصل له»[٥٨].

فقد بلغت المسألة بهذا الكلام كمال الكشف والوضوح، وتبين أنه لا بد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب، وإلا كان إيمانه وعلمه هباء منثوراً.

ومع أن هذا هو المقصود؛ أعني أنه لا بد للعبد من العمل مع الإيمان، وأنه ينبغي له أن يتعهد بذر الإيمان بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات، ويطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة؛ فإن بعض الناس قد نظروا بالعين العوراء إلى أحد الأمرين، فأقروا بالتوحيد، وادعوا الإيمان، لكنهم لم يوفوا بمقتضى أي واحد منهما، فطرحوا بساط الشرع، وطووا بساط الأحكام، وسلكوا مسلك الإباحيين الذين تأخذهم ترهات كقول بعضهم: إن الله غني عن عملهم.

وقد نبأنا أبو حامد من أخبارهم في «كتاب ذم الدنيا» من **الإحياء** حيث قال ما لفظه: «وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص، ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحية، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى

---

(٥٨) انظر: المصدر نفسه: «سورة الطلاق،» الآية ١٢، و«سورة الذاريات،» الآية ٥٦، والغزالي، **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين**، ص ٦١.

معرفة الله تعالى؛ فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق»[٥٩].

فهذا ظن القاسية قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض، ﴿**إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون**﴾، بل الكامل «من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه»، ولا يسمح لنفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة[٦٠].

وهذا الذي يعتقده هؤلاء؛ جناية على حدقة التوحيد، وقذى في عين اليقين، وناهيك بهما جناية على الدين، فلا جرم تحق عليهم الكلمة بأنهم من الهالكين، ويدخلون في عموم قوله تعالى: ﴿**إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون**﴾[٦١].

وقد رد على هذه المغلطة أبو حامد ـ رحمه الله، في مواضع من كتبه. وحسبنا من ذلك؛ ما ورد في «كتاب ذم الغرور» من **الإحياء**؛ حيث قال ما نصه: «وأما الذي يدعي علوم المكاشفة، كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل، ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد. . . بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، **إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه. . .**

فمن عرف الله تعالى؛ عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد، لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع، حيث قال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[٦٢].

---

(٥٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب ذم الدنيا،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٦٠) انظر: **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ١١٦، وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **مشكاة الأنوار**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٣٠ على التوالي.

(٦١) **القرآن الكريم**، «سورة يس،» الآية ٨.

(٦٢) المصدر نفسه، «سورة فاطر،» الآية ٢٨. انظر أيضاً: الغزالي، «كتاب ذم الغرور،» ج ٣، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠. كما إن ما ذكره أبو حامد في فتوى له، أوردها ابن السبكي في **طبقاته**. انظر: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ط ٢ (بيروت: دار المعرفة، [د. ت.])، ج ٤، ص ١٣٦ ـ ١٤٣. وأوردتها في بحثي: **محمد عبدو**، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط)، ص ٢١٤ ـ ٢١٩.

ونظائر هذا النص مما يكثر وجوده في تصانيف أبي حامد، ولا سيما **إحياء علوم الدين**، فليطلبها منه من أراد استظهاراً.

وإذن؛ فقد تبين أن الأمر ليس على ما توهم هؤلاء، وأنه ليس لهم من التوحيد إلا رسمه دون حقيقته وسره، ومن الإيمان قشرة دون كنهه ولبه.

ثم أقول أيضاً إن شاهد ما بيننا وبين القوم ما كان عليه الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعون؛ فإنهم عرفوا أن السعادة القصوى في القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، وأن القرب منه سبحانه ليس بالمكان؛ وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الإمكان، وأن كمال النفس بالعلم والعمل.

وما لنا نذهب بعيداً، فهذا نبينا (ﷺ) سيد البشر؛ مع ارتقائه إلى ذروة المعرفة بالأمور الإلهية ومقاصدها، كان يقوم الليل ويبكي حتى تسيل دموعه على صدره، وقد قيل له في ذلك فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٦٣].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل لا إله إلا الله قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، إنه ولي الهداية والتوفيق بفضله.

---

(٦٣) هو جزء من حديث عائشة (رضي الله عنها)، حين سألها عطاء: «أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله (ﷺ) قالت: وأي أمره لم يكن عجباً..». الحديث، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب **أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء**، وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في **صحيحه** من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأي أمره لم يكن عجباً.. وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث، وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة ابن شعبة. انظر: ابن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ٤، ص ١٠٨ و١١٦ على التوالي.

# القسم الثاني

## في الكلام على أركان الإيمان

يذهب الإمام الغزالي إلى أن غاية مقصد الكتاب العزيز في الدنيا إنما هي معرفة الله تعالى، وعنه العبارة بقوله في كتاب **جواهر القرآن ودرره**: «سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السموات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى»[1].

ونظيره قوله ـ رحمه الله ـ في «كتاب التوبة» من **الإحياء**: «إنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى، ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾. . . فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء»[2].

وتشتمل هذه المعرفة على[3]:

١ ـ معرفة ذات الحق تبارك وتعالى.

٢ ـ معرفة صفاته وأسمائه.

٣ ـ معرفة أفعاله تعالى.

وينبغي أن يعلم أن مراد الغزالي بالمعرفة هنا؛ معرفة كنه الشيء وسره، وقد عبر ـ رحمه الله ـ عن هذا المعنى بقوله: «والمعرفة بالشيء؛ هي معرفة حقيقته وماهيته، لا معرفة الأسامي المشتقة، فإن قولنا: المعرفة بالشيء

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)، ص ١١.

(٢) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوبة،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ٤، ص ٢٦، و**القرآن الكريم**، «سورة الذاريات،» الآية ٥٦.

(٣) الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، ص ١١.

معرفة حقيقته»[٤].

وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب معرفة الله تعالى، ومعرفة عقائده التي تعبد الخلق بها واعتبارها، وكان هذا الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط معانيها، واستخراج حكمها وأسرارها، فواجب أن نذر التواني في تطلب معرفتها، وأن نجعل نظرنا مصروفاً إليها، وإلى الفحص عن مقاصدها.

وإذا كان الأمر هكذا؛ وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر مقاصد المعارف الثلاث المذكورة، قد فحص عنه ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ أبو حامد أتم فحص، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبه، فنكشف الغطاء عن حقيقة مذهبه فيها واحداً واحداً. والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه.

---

(٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ٣١.

# الفصل الثالث

## في معرفة ذات الله تعالى

الكلام على ذاته تعالى يطول، لكني أوجز وأقتصر على التنبيه إلى ما يحصل به الغرض، فأقول وبالله التوفيق.

حقيقة مذهب أبي حامد في ذات الله تعالى وصفاته تستبين برسم مبحثين ثنين، مستخرجين من النص الذي أقتبسه من «كتاب التفكر» من **الإحياء**؛ حيث قال في القسم الثاني من مجاري الفكر، والذي سماه: «الفكر في جلال ـه وعظمته وكبريائه»: «وفيه مقامان: المقام الأعلى ـ وهو الذي يعنيني هنا ـ لفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه، حيث قيل: تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله، وذلك لأن العقول تتحير فيه، لا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون، ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر لخلق بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنه لا يطيقه»[1].

فهذا الكلام من أبي حامد صريح في أن الناس، بالإضافة إلى النظر في ذات الله تعالى، على صنفين:

**الصنف الأول**: يزم عن الخوض فيها، ويلجم بلجام المنع، وهم عوام الخلق.

**والصنف الثاني**: لا يمنع عن التعرض لمجاري الفكر في الذات الإلهية،

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التفكر،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ٤، ص ١٧.

واجتناء حقائقها، وكشف أسرار صفاتها، وعنهم عبر الغزالي بالصديقين.

فهما إذن؛ مبحثان يتسع المجال فيهما إلى حد غير محدود، ولكني أشير إليهما بالرمز والاختصار.

## أولاً: مقام عوام الخلق

يرى أبو حامد أن العامي إذا قرع سمعه لفظ الصورة أو اليد أو القدم أو النزول أو الانتقال أو الجلوس على العرش أو الاستقرار، وما يجري مجراه مما وردت به الآيات والأخبار، فالسكوت عليه حتم، لأنه قد يسبق منها إلى فهمه معان يتعالى عنها الرب تعالى، يصير بها كافراً أو مبتدعاً وهو لا يشعر بذلك[٢].

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى: «لما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه»[٣].

وهذا يعضده حديث يروى عن رسول الله (ﷺ)، وعبارته: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى»[٤].

وهذا الحديث، وإن كان ضعيفاً؛ فإن الواقع يشهد له، وبيانه: أن معرفة ذات الله تعالى، على ما ذكره أبو حامد، أضيق المعارف مجالاً، وأعسرها منالاً، وأعصاها على الفكر، وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع حاصلها إلى التقديس المطلق[٥].

---

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) الغزالي، «كتاب التفكر،» ج ٤، ص ١٧.

(٤) الحديث، أخرجه أبو نعيم في **الحلية** بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في **الترغيب والترهيب** من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في **الأوسط** والبيهقي في **الشعب** من حديث ابن عمر، وقال هذا إسناد فيه نظر، قال صاحب **المغني**: فيه الوازع بن نافع متروك. انظر: أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في ذيل: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٤.

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٣ ـ ١٤.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى على ما أوردته، وكان يقع للعوام من التشبيه والتجسيم، بحيث يصير الواحد باعتقاده كافراً مبتدعاً، وكان الوقوف على دقائق معاني تلك الألفاظ وأسرارها ليس جلياً سهلاً على الخلق كافة، بل يعسر نيلها، ولا يطلع عليها إلا واحد بعد واحد، وهم أهل النظر وأرباب الفكر. جاء الإمام الغزالي فصنف كتابه الشهير **إلجام العوام عن علم الكلام**، أوجب فيه على عوام الخلق وظائف سبعاً، أذكرها مختصرة مجملة:

١ ـ **التقديس**: ويعني به أبو حامد تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها[٦] مثاله: أن العامي إذا سمع اليد والأصبع الواردين في قوله (ﷺ): «إن الله خمر طينة آدم بيده»[٧] وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[٨] فينبغي أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين:

**أحدهما**: هو الموضع الأصلي وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب، واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص بصفات مخصوصة[٩].

**والثاني**: أن هذا اللفظ؛ أعني اليد، قد يستعار لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلاً، كما يقال: البلدة في يد الأمير؛ فإن ذلك مفهوم، وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلاً[١٠].

فعلى العامي وغير العامي أن يتحقق قطعاً ويقيناً أن الرسول (ﷺ) لم يرد بذلك جسماً هو عضو مركب من لحم ودم وعظم، وأن ذلك في حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس[١١].

وليعتقد بعده أنه عبارة عن معنى من المعاني ليس بجسم ولا عرض في حقه يليق ذلك المعنى بالله تعالى؛ فإن كان لا يدري ذلك المعنى ولا يفهم

---

(٦) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ٦١.
(٧) الحديث رواه أبو منصور الديلمي في **مسند الفردوس** من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي. انظر: ابن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ٤، ص ٣٦٧.
(٨) الحديث أخرجه الإمام مسلم من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص. انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب القدر،» باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، الحديث ٢٦٥٤، ج ١٦، ص ٢٠٤.
(٩) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ٦٢.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣.
(١١) المصدر نفسه، ص ٦٣.

كنه حقيقته، فليس عليه في ذلك تكليف أصلاً، فمعرفة تأويله ومعناه ليس بواجب عليه، بل واجب عليه أن لا يخوض فيه[١٢].

وإذا تقرر لنا هذا؛ فقد ظهر لنا من قول أبي حامد أن ها هنا ظاهراً من ألفاظ الشرع يجب على العامي ومن هو في مرتبته ألا يتعرض لها ببحث أو تفتيش.

**٢ ـ الإيمان والتصديق**: وإيضاحه أنه ينبغي للعامي أن يعلم قطعاً أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته، وأن رسول الله (ﷺ) صادق في وصف الله تعالى به، فليؤمن بذلك وليوقن بأن ما قاله صدق، وما أخبر عنه حق لا ريب فيه، وليقل آمنا وصدّقنا، وأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه، وحق بالمعنى الذي أراده، وعلى الوجه الذي قاله، وإن كنت لا تقف على حقيقته[١٣].

وكما جرت عادة أبي حامد في التنقير والسؤال، وتوجيه الإشكال، ثم الاشتغال بحله، فقد أثار ها هنا إشكالين:

أما **أحدهما**: فإن التصديق إنما يكون بعد التصور، والإيمان إنما يكون بعد التفهم، فهذه الألفاظ إذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد صدق قائلها فيها[١٤]؟

**وثانيهما**: أن من مقاصد الشارع وضع الشريعة للإفهام، وظاهر تلك الألفاظ غير مفهومة لسائر الخلق، فأي فائدة في مخاطبة الخلق بما لا يفهمون[١٥]؟

وقد انفصل أبو حامد عن هذين الإشكالين بجوابين مقنعين لا مزيد عليهما:

أما الجواب عن الإشكال **الأول**؛ فهو أن التصديق بالأمور الجملية ليس بمحال، وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان، وأن كل اسم فله مسمى، إذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى، فيمكن أن يعتقد كونه صادقاً مخبراً عنه على ما هو عليه، فهذا معقول على سبيل الإجمال، بل

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٦٥ ـ ٦٦.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٦.

ـكن أن يفهم من هذه الألفاظ أموراً جملية غير مفصلة ويمكن التصديق[16].

ويوضح أبو حامد هذا بمثال: فمن سمع الاستواء على العرش فهم على جملة أنه أريد بذلك نسبة خاصة إلى العرش، فيمكنه التصديق قبل أن يعرف ـ تلك النسبة هي نسبة الاستقرار عليه، أو الإقبال على خلقه، أو الاستيلاء عليه بالقهر، أو معنى آخر من معاني النسبة، فأمكن التصديق به[17].

وأما الجواب عن الإشكال **الثاني**؛ فهو أن الشارع «قصد بهذا الخطاب ـبيه من هو أهله، وهم الأولياء والراسخون في العلم وقد فهموا، وليس من ـرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان، والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين، ولكن على الصبيان أن ـسألوا البالغين عما يفهمونه، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ولستم من أهله، فخوضوا في حديث غيره، فقد قيل للجاهل: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾، فإن كانوا يطيقون فهموهم، وإلا قالوا لهم: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾»[18].

وما ذهب إليه أبو حامد ـ إن شاء الله تعالى ـ حجة لا يتطرق إليها ريب؛ لأن العوام لا يطيقون فهمها، وعقولهم لا تتحمل أكثر منها، فلا ينبغي أن ـخوض بهم في غمرة المشكلات، لكن إن ألفينا واحداً يتقاضاه طبعه أن ـغوص في البحار، وتوسمنا فيه مخايل الفهم فهمناه، وإلا ألجمناه.

٣ ـ **الاعتراف بالعجز**: ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعاني ـحقيقتها، ولم يعرف تأويلها، والمعنى المراد بها أن يقر بالعجز[19].

قال أبو حامد: «بل الراسخون في العلم والعارفون من الأولياء، إن جاوزوا في المعرفة حدود العوام، وجالوا في ميدان المعرفة، وقطعوا من ـديهم أميالاً كثيرة، فما بقي لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر. بل لا نسبة ـطوي عنهم إلى ما كشف لهم؛ لكثرة المطوي وقلة المكشوف بالإضافة ـه. والإضافة إلى المطوي المستور. قال سيد الأنبياء (ﷺ): «لا أحصي ثناء

(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٦ ـ ٦٧. انظر أيضاً: **القرآن الكريم**: «سورة النحل،» الآية ٤٣، ـورة الإسراء،» الآية ٨٥ على التوالي.
(١٩) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٦٧.

عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وبالإضافة إلى المكشوف قال صلى الله عليه وسلم: «أعرفكم بالله أخوفكم لله، وأنا أعرفكم بالله»، ولأجل كون العجز والقصور ضرورياً في آخر الأمر بالإضافة إلى منتهى الحال. قال سيد الصديقين: «العجز عن درك الإدراك إدراك»[٢٠].

فأوائل حقائق هذه المعاني بالإضافة إلى عوام الخلق كأواخرها بالإضافة إلى خواص الخلق، فكيف لا يجب عليه الاعتراف بالعجز[٢١]؟

٤ ـ **السكوت عن السؤال**: وذلك واجب على العامي؛ لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه، وخائض في ما ليس أهلاً له، فإن سأل جاهلاً زاده جوابه جهلاً، وربما ورطه في الكفر من حيث لا يشعر، وإن سأل عارفاً عجز عن تفهيمه.

فإذا طلب العوام بالسؤال هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعل عمر (رضي الله عنه) بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله (ﷺ) في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر وسألوا عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: «فبهذا أمرتم»، وقال: «إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال» أو لفظ هذا معناه، كما اشتهر في الخبر[٢٢].

٥ ـ **الإمساك عن التصرف في ألفاظ واردة**: يجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الأخبار والإمساك عن التصرف فيها من أوجه ستة: التفسير، والتأويل، والتصريف، والتفريع، والجمع، والتفريق[٢٣].

٦ ـ **الكف بعد الإمساك**: وهي أثقل الوظائف وأشدها. ويعني أبو حامد بالكف، كف الباطن عن التفكر في هذه الأمور، فذلك واجب عليه، كما وجب عليه إمساك اللسان عن السؤال والتصرف. وهو واجب عليه، كما وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار، وإن كان يتقاضاه طبعه أن

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨. وحديث «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، أخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة (رضي الله عنها) في: **صحيح مسلم**، «كتاب الصلاة،» باب ما يقال في الركوع والسجود، الحديث ٤٨٦، ج ٤، ص ١٧٠.

(٢١) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩. وحديث نهيه عن الكلام في القدر، روى نحوه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن، ولفظه: «إذا ذكر القدر فأمسكوا..». انظر الحديث في: ابن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ١، ص ٤٤.

(٢٣) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٦٩.

يخوض في البحار ويخرج دررها وجواهرها، ولكن لا ينبغي أن تغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلها[٢٤].

ويرى الإمام الغزالي أن العامي لو اشتغل بالمعاصي البدنية، ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن معرفة الله تعالى؛ فإن ذلك غايته الفسق، وهذا عاقبته الشرك، وأورد قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[٢٥].

٧ ـ **الكشف البالغ ـ التسليم لأهل المعرفة**: وإيضاحه؛ «أنه يجب على العامي أن يعتقد أن ما انطوى عنه من معاني هذه الظواهر وأسرارها، ليس منطوياً عن رسول الله (ﷺ)، وعن الصديق وعن أكابر الصحابة، وعن الأولياء والعلماء الراسخين، وأنه إنما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته، فلا ينبغي أن يقيس بنفسه غيره، فلا تقاس الملائكة بالحدادين، وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك، فقد خلق الناس أشتاتاً متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر...»[٢٦].

فهذه هي الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق في هذه الأخبار.

وعند هذا يتضح لنا أن ها هنا أموراً:

**الأمر الأول**: غاية ما يجب في حق العامي، ومن هو في مرتبته، أن يعلم أن هذه الألفاظ أريد بها معان تليق بجلال الله تعالى. ولا عليه إن لم يعرفها، فهو مكلف فقط بأن لا يعتقد في الله تعالى معنى هو على الله محال.

**الأمر الثاني**: ما ذكره أبو حامد هو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن دوك الحقائق الغامضة.

**الأمر الثالث**: أن الإمام الغزالي في سلوكه هذا المنهج كان متحرياً قصد صاحب الشرع؛ فإنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٢٧].

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٨٣، والقرآن الكريم، «سورة النساء،» الآية ١١٦.

(٢٦) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢٧) أخرج البخاري هذا الحديث في **صحيحه**، «كتاب العلم،» باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

وهذا لأن الناس أعداء ما جهلوا، فمن خاطبهم بما تنبو عنه أفهامهم، فهو الذي أقحمهم ورطة الجهل، وعرضهم لخطر الكفر، وخالف قصد الشرع.

**الأمر الرابع**: قد يسبق إلى أفهام قوم من هذه الإطلاقات معان يتعالى عنها الرب تعالى، فمن لم يعتقد في الله سبحانه تلك المعاني، فهو المسلم الحقيقي الذي عقيدته العقيدة الإسلامية. ومن اعتقدها ولم يستطع نبذها واطراحها، فأمره بمشيئة الله تعالى، ولا يؤمن في حقه الخطر.

وقد تبين من هذه الوظائف الطريق التي دعا الغزالي من قبلها العوام إلى تنزيه الله تعالى، واطراح المعاني الفاسدة التي يتخيلونها في الحق سبحانه.

**الأمر الخامس**: ظاهر كلام أبي حامد مصرح باشتمال تلك الظواهر على معان وأسرار، لكن ليس الوقوف على دقائق معانيها وخفي أسرارها جلياً سهلاً يسيراً على كافة الخلق، بل يعسر دركها، ولا يطلع عليها إلا واحد بعد واحد.

فهذا تمام النظر في هذا المقام، وهناك مقام وراء هذا، وهو مقام النظار الذين فهموا من اللفظ الملفوظ به غيره، فلنرتق إليه.

## ثانياً: مقام العلماء

قد تبين مما أوردته في المبحث الذي قبل هذا، أن ظواهر الآيات والأخبار الواردة في هذا القسم، غير مرادة. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب المصير إلى تأويلها.

ولا ينبغي أن يلتبس علينا إطلاق لفظ التأويل في هذا المبحث، وأنه ماذا أريد به؟ فإن التأويل كما ذكر ذلك أبو حامد حكاية عن صاحب **الكشاف** الإمام جار الله الزمخشري، عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾[٢٨].

ففسر التأويل بقوله: «يعني معاني كتب الله، وسنن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

(٢٨) القرآن الكريم، «سورة يوسف،» الآية ٦.

وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، تفسرها لهم وتشرحها، وتدلهم على مودعات حكمها»[29].

فإذا تمهد هذا المعنى؛ فبيّن أنه لا يقوى على تأويلها وكشف غطائها، مع شدة خفائها، إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بنور الحقائق، فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا.

وليس يخفى على من كان بصيراً بالصناعة، عارفاً دقائق الصياغة، أن أبا حامد من العلماء الذين سبقوا في هذا الميدان، وفاتوا الغاية في هذا الشان.

وأنا الآن أبدأ، فأحرر طريقه في الكشف عن معاني تلك الظواهر ومقاصدها، وتذليل مسالكها ومنهاجها، وأقتصر من ذلك على سبع مسائل هي كافية بحسب غرضي.

**١ ـ في الجهة**: يدعي الإمام الغزالي أن الله تعالى ليس في جهة مخصوصة من الجهات الست. ويعني بالجهات الست: فوق، وأسفل، وقدام، وخلف، ويمين وشمال[30].

وقد احتج لذلك بأدلة عقلية، ليست هي المقصودة بالبيان هنا، فلا أطول بذكرها[31].

ويتوجه لأبي حامد على هذا المذهب أسئلة وإشكالات أشير إلى بعضها، ليستدل بها على طريق الدفع في غيرها.

**الإشكال الأول**: أن يقال: إن لم يكن مخصوصاً بجهة فوق؛ فما بال الوجوه والأيدي ترفع إلى السماء في الأدعية شرعاً وطبعاً[32]؟

**الإشكال الثاني**: أن يقول القائل: ما باله صلى الله عليه وسلم قال

---

(٢٩) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٦٧، محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ٤ ج (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، [د. ت.])، ج ٢، ص ٣٠٣.

(٣٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد** (بيروت: دار الكتب العلمية، [...])، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣١.

للجارية التي قصد إعتاقها، فأراد أن يستيقن إيمانها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: إنها مؤمنة[٣٣].

فكيف يخلص أبو حامد السائل عن ذينك الإشكالين، فيثبت أن الله تعالى ليس مخصوصا بجهة فوق، ويبين في الآن نفسه علة رفع الأيدي والوجوه إلى السماء في الدعاء الذي هو مخ العبادة؟ والحكمة في ذلك؟

قال أبو حامد: «فالجواب عن الأول: أن هذا يضاهي قول القائل: إن لم يكن الله تعالى في الكعبة وهو بيته؛ فما بالنا نحجه ونزوره؟ وما بالنا نستقبله في الصلاة؟ وإن لم يكن في الأرض فما بالنا نتذلل بوضع وجوهنا على الأرض في السجود؟ وهذا هذيان. بل يقال: قصد الشرع من تعبد الخلق بالكعبة في الصلاة ملازمة الثبوت في جهة واحدة؛ فإن ذلك لا محالة أقرب إلى الخشوع وحضور القلب من التردد على الجهات. ثم لما كانت الجهات متساوية من حيث إمكان الاستقبال خصص الله بقعة مخصوصة بالتشريف والتعظيم وشرفها بالإضافة إلى نفسه، واستمال القلوب إليها بتشريفه ليثبت على استقبالها، فكذلك السماء قبلة الدعاء، كما أن البيت قبلة الصلاة، والمعبود بالصلاة والمقصود بالدعاء منزه عن الحلول في البيت والسماء.

ثم في الإشارة بالدعاء إلى السماء سر لطيف يعز من يتنبه لأمثاله؛ وهو أن نجاة العبد وفوزه في الآخرة بأن يتواضع لله تعالى ويعتقد التعظيم لربه، والتواضع والتعظيم عمل القلب، وآلته العقل، والجوارح إنما استعملت لتطهير القلب وتزكيته؛ فإن القلب خلق خلقة يتأثر بالمواظبة على أعمال الجوارح، كما خلقت الجوارح متأثرة لمعتقدات القلوب. ولما كان المقصود أن يتواضع في نفسه بعقله وقلبه، بأن يعرف قدره ليعرف بخسة رتبته في الوجود لجلال الله تعالى وعلوه، وكان من أعظم الأدلة على خسته الموجبة لتواضعه أنه مخلوق من تراب، كلف أن يضع على التراب الذي هو أذل الأشياء وجهه الذي هو أعز الأعضاء، ليستشعر قلبه التواضع بفعل الجبهة في مماستها الأرض، فيكون البدن متواضعاً في جسمه وشخصه وصورته بالوجه الممكن فيه، وهو معانقة التراب الوضيع الخسيس، ويكون العقل متواضعاً

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٣١. والحديث أخرجه الإمام مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي. انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب المساجد ومواضع الصلاة،» باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحة، الحديث ٥٣٧، ج ٥، ص ١٨.

ربه بما يليق به، وهو معرفة الضعة، وسقوط الرتبة، وخسة المنزلة عند الالتفات إلى ما خلق منه.

فكذلك التعظيم لله تعالى وضيعة على القلب فيها نجاته، وذلك أيضاً ينبغي أن تشترك فيه الجوارح، وبالقدر الذي يمكنه أن تحمل الجوارح. وتعظيم القلب بالإشارة إلى علو الرتبة على طريق المعرفة والاعتقاد، وتعظيم الجوارح بالإشارة إلى جهة العلو الذي هو أعلى الجهات وأرفعها في الاعتقادات؛ فإن غاية تعظيم الجارحة استعمالها في الجهات، حتى إن من المعتاد المفهوم في المحاورات أن يفصح الإنسان عن علو رتبة غيره وعظيم ولايته، فيقول: أمره في السماء السابعة، وهو إنما ينبه إلى علو الرتبة، ولكن يستعير له علو المكان، وقد يشير برأسه إلى السماء في تعظيم من يريد تعظيم أمره، أي أمره في السماء؛ أي في العلو، وتكون السماء عبارة عن العلو.

فانظر كيف تلطف الشرع بقلوب الخلق وجوارحهم في سياقهم إلى تعظيم الله، وكيف جهل من قلت بصيرته، ولم يلتفت إلى ظواهر الجوارح والأجسام، وغفل عن أسرار القلوب واستغنائها في التعظيم عن تقدير الجهات، وظن أن الأصل ما يشار إليه بالجوارح، ولم يعرف أن المظنة الأولى لتعظيم القلب، وأن تعظيمه باعتقاد علو الرتبة لا باعتقاد علو المكان. وأن الجوارح في ذلك خدم وأتباع، يخدمون القلب على الموافقة في التعظيم بقدر الممكن فيها، ولا يمكن في الجوارح إلا الإشارة إلى الجهات، فهذا هو السر في رفع الوجوه إلى السماء عند قصد التعظيم.

ويضاف إليه عند الدعاء أمر آخر؛ وهو أن الدعاء لا ينفك عن سؤال نعمة من نعم الله تعالى، وخزائن نعمه في السموات، وخزان أرزاقه الملائكة، ومقرهم ملكوت السموات وهم الموكلون بالأرزاق. وقد قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[٣٤]. والطبع يتقاضى الإقبال بالوجه على الخزانة التي هي مقر الرزق المطلوب، فطلاب الأرزاق من الملوك إذا أخبروا بتفرقة الأرزاق على باب الخزانة مالت وجوههم وقلوبهم إلى جهة الخزانة، وإن لم يعتقدوا أن الملك في الخزانة، فهذا هو محرك وجوه أرباب الدين إلى جهة السماء طبعاً وشرعاً.

---

(٣٤) القرآن الكريم، «سورة الذاريات،» الآية ٢٢.

فأما العوام فقد يعتقدون أن معبودهم في السماء، فيكون ذلك أحد أسباب إشارتهم، تعالى رب الأرباب عما اعتقد الزائغون علواً كبيراً.

وأما حكمه صلوات الله عليه بالإيمان للجارية لما أشارت إلى السماء، فقد انكشف به أيضاً؛ إذ ظهر أن لا سبيل للأخرس إلى تفهم علو الرتبة إلا بالإشارة إلى جهة العلو، فقد كانت خرساء كما حكي، وقد كان يظن بها أنها من عبدة الأوثان، ومن يعتقد إلهاً في بيت الأصنام، فاستنطقت عن معتقدها، فعرفت بالإشارة إلى السماء أن معبودها ليس في بيوت الأصنام كما يعتقده أولئك»[٣٥].

فهذا كله كلام أبي حامد، سناؤه وضياؤه على ما نرى، وسلاسته على ما نشاهد، ورونقه على ما نعاين، وفصاحته على ما نعرف. جاء فيه بالآيات المحكمة والبينات القيمة. ألا ترى كيف نزه الله تعالى عن الجسمية وعوارضها؟ وكيف بين بحجته، ولين لهجته علة رفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء؟ فخرج من عهدة ما أخذ عليه، ولم يقصر في شيء مما عهد به إليه.

ومع ذلك؛ فإنه ليس يسلم عن المعارضة. وإيضاحه: أن غير أبي حامد لا يرى هذا النظر، مثل الإمام ابن تيمية ـ ومن حذا حذوه من الحنابلة؛ فإن كلامه على هذه المسألة في غاية المضادة لكلام أبي حامد عليها. ولا سبيل إلى نبذه أو غض الطرف عنه، لأن مقصدنا الذي نروم هو معرفة الحق، «والحق ـ كما ذكر ذلك أبو حامد في كتابه **معراج السالكين** ـ لا يعرف قدره وحده ما لم يعرف نقيضه وضده، فبضدها تتميز الأشياء. ومقصدنا التنبيه إلى الطريق الأسلم، والصراط الأقوم، ولا بد من ذكر الطريق المنحطة عنه لينصف في ذلك الناظر في هذا الكتاب»[٣٦].

فإذا تقرر هذا فأقول: قال الإمام ابن تيمية في كتابه الذي سماه **الفتوى الحموية الكبرى** ما نصه: «فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنّة رسوله (ﷺ) من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو عال على كل شيء، وأنه فوق

---

(٣٥) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص ٣١ ـ ٣٣.

(٣٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **معراج السالكين**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٨١.

عرش، وأنه فوق السماء؛ مثل قوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾»[٣٧].

وذكر جملة من الآيات وعدداً من الأخبار، ثم قال: «إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله، مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية، على أن الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين أن الله سبحانه على العرش، وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام... ثم ليس في كتاب الله ولا في سنّة رسوله (ﷺ) ولا عن واحد من سلف الأمة، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحد منهم قط إن الله ليس في السماء، ولا إنه ليس على العرش، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إنه داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة إليه بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن النبي (ﷺ) لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره الرسول (ﷺ)، جعل يقول: «ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم. فيرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول: اللهم اشهد» غير مرة، وأمثال ذلك كثير»[٣٨].

وهكذا قاله ابن القيم في كتابه **إعلام الموقعين عن رب العالمين** تأليفه، أن الله تعالى مختص بجهة العلو، وكونه فوق عباده من ثمانية عشر وجهاً. فليطلبها منه من أراد استظهاراً[٣٩].

وهذا الكلام الذي ذكره الإمام ابن تيمية لازم على مذهبه، فإنه يجري الحديث على ظواهرها، ولا يتعرض لتأويلها. وجميع ما أحكيه هنا عن أبي حامد الغزالي قال فيه ابن تيمية بالضد من ذلك. ولا لوم عليه في ذلك ولا عتب، وإنما أنكر عليه أنه غلط على أبي حامد في ما نسب إليه من أن عين

---

(٣٧) انظر: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **الفتوى الحموية الكبرى**، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٨، و**القرآن الكريم**، «سورة فاطر،» ...

(٣٨) ابن تيمية الحراني، المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣٩) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ١، ص ٣٠٠.

تأويلاته هي عين تأويلات بشر بن غياث المريسي الذي أنكر الصفات وأظهر قول جهم بن صفوان[٤٠]. وعبارته: «وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس؛ مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في **كتاب التأويلات**، وذكرها أبو عبد الله بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه **تأسيس التقديس**، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء، مثل: أبي علي الجياني وعبد الجبار بن أحمد الهمداني وأبي الحسين البصري وأبي الوفاء ابن عقيل وأبي حامد الغزالي وغيرهم، وهي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في كتابه، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً، ولهم كلام حسن في أشياء، فإنما بينت أن عين تأويلاتهم هي تأويلات المريسي»[٤١].

وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه.

فهذا الذي قاله الإمام ابن تيمية بعيد عن الحق؛ لأن ورود مثل تلك التأويلات في غضون تواليف أبي حامد لا يعني بالضرورة أنه أخذها عن بشر المريسي، فقد يكون ذلك من باب التقاء الخواطر.

فمقالة ابن تيمية غير مؤيدة بالحجة والبرهان.

فإن قيل: إن الطعن على هذه التأويلات ليس من جهة أنها مأخوذة عن بشر المريسي فحسب وإنما أيضاً من جهة كونها لا توافق مراسم الشرع وظواهر ما عليه قواعد الملة.

وعند هذا فأقول: قد حكى الذهبي عن عبد الغافر الفارسي أنه قال: «إن المنصف اللبيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره الغزالي مما رمز إليه إشارات الشرع، وإن لم يبح به، ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة، ومصرحاً بها متفرقة، وليس لفظ منه إلا وكما تشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة، فلا يجب حمله إذن إلا على ما يوافق»[٤٢].

وقد نجد في كلام أبي حامد إشارة إلى هذا الذي ذكره عبد الغافر، قال ـ رحمه الله ـ في كتابه **المنقذ من الضلال** يرد على طائفة تمسكت بمثل

---

(٤٠) ابن تيمية الحراني، المصدر نفسه، ص ١٤.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٩، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

ـ تمسك به الإمام ابن تيمية، قال: «ولقد اعترض على بعض الكلمات ـمبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في ـعلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم؛ فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنّة، فلمَ ينبغي أن يهجر ويترك؟ فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن، وأخبار الرسول وحكايات السلف، وكلمات الحكماء الصوفية؛ لأن صاحب كتاب **إخوان الصفا** أوردها في كتابه مستشهداً بها، ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطنه، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه في كتبهم، وأقل درجات العالم، أن يتميز عن العامي الغمر، فلا يعاف العسل، وإن وجده في محجمة الحجام»[٤٣].

وإذا اتضح هذا، فلأرجع إلى ما كنت فيه من الكلام على مسألة الاختصاص بالجهة، وأبين بالأدلة القاطعة أن مذهب أبي حامد أولى في ذلك بالصحة والأجدر بالصواب.

وبيان ذلك من وجوه:

**الوجه الأول**: قد تقدم أن معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصد الأقصى من علوم القرآن.

وهذا المقصد لا ينازع فيه الإمام ابن تيمية ولا غيره.

وإذا تقرر لنا هذا الأصل، فواجب على من أراد معرفة الله تعالى حق معرفته أن يعرف معاني تلك الظواهر، ويفحص عن أسرارها ومقاصدها، ليقف على حقيقة ذاته تعالى؛ لأن من لم يعرف حقيقة الظواهر لم يعرف حقيقة الذات العلية.

---

(٤٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال** ([د. م.]: دار العلم للجميع، [د. ت.])، ص ٤٥ ـ ٤٦.

وما ذهب إليه أبو حامد في المسألة هو الذي يناسب هذا الكلام، فيجب تقديمه.

**الوجه الثاني**: أن مقصود الشرع تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، والقول بالجهة يخالف هذا المقصود.

فثبت أن أبا حامد قد وفق للسداد، ورشح للاقتصاد في الاعتقاد، وعرف أن الجهة منفية لأنها للجسمية تابعة وتتمة.

**الوجه الثالث**: ليس في ما ذكره أبو حامد شيء يخالف مقصود الشرع أو يعارضه، بل يوافقه غاية الاتفاق، فمن ينازع؟

ليت شعري هل ينازع في قوله: «إن المقصود بالإشارة بالدعاء إلى السماء ملازمة الثبوت في جهة واحدة، وأن ذلك أقرب إلى الخشوع»، أو في قوله: «إن المقصود للعبد أن يتواضع بقلبه لله تعالى، وأن يعتقد التعظيم لربه، وأن تعظيمه باعتقاد علو الرتبة لا باعتقاد علو المكان»، أو في قوله: «إن الدعاء لا ينفك عن سؤال نعمة من نعم الله تعالى، وخزائن نعمه السموات»؟

فهذه أسرار ومقاصد، لا يقدر أحد على جحدها أو إنكارها، إن كان من أهل التمييز فضلاً عن العلماء والعقلاء.

**الوجه الرابع**: أن استخراج حكم العقائد ومصالحها، وتبيان محاسنها ولطائفها هو المستجر للقلوب إلى الالتزام بموارد العقيدة ومآخذها.

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في معرض حديثه عن فوائد العلة القاصرة في كتابه **المستصفى**، فذكر أن من بين فوائدها «معرفة باعث الشرع ومصلحة الحكم، استمالة للقلوب إلى الطمأنينة والقبول بالطبع والمسارعة إلى التصديق؛ فإن النفوس إلى قبول الأحكام المعقولة المعنى، الجارية على ذوق المصالح أميل منها إلى قهر التحكم ومرارة التعبد، ولمثل هذا الغرض استحب الوعظ، وذكر محاسن الشريعة ولطائف معانيها، وكون المصلحة مطابقة للحكم، وعلى قدر حذقه يزيدها حسناً وتأكيداً»[٤٤].

---

(٤٤) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى من علم الأصول** (بيروت: دار العلوم الحديثة، [د. ت.])، ج ٢، ص ٣٤٥، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق عصام فارس الحرشاني (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧)، ص ٥٤١.

وهذا، كما يظهر من كلام أبي حامد، في الأحكام، فكم بالحري أن
يكون ذلك في الاعتقادات، فإنها تكاليف القلوب، وعلم الأصول، والمقصود
الأول بالخطاب.

**الوجه الخامس**: بين أبي حامد وابن تيمية فرقان، وهما: أن ابن تيمية
... في حسم باب التأويل، وأنكر ذلك على العلماء، وأما الغزالي فسلك
... الاعتدال، فألجم العوام عن خوض غمرة التأويل، ولكنه ذكر من
... ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار الظواهر وأسرارها، لينتفع بها من لا
يقنع بالظواهر، ولا يجتزئ بالقشر عن اللباب، بل يتشوف إلى معرفة دقائق
حقائق الأسباب.

**الوجه السادس**: بين أبي حامد وابن تيمية بون شاسع، وإيضاحه: أن
ابن تيمية بالغ في الجمود على الظواهر، وأما الغزالي فوفقه الله تعالى للقيام
بالحق، فتفطن للمسلك القصد، وهو تقرير الظواهر، والغوص على الدرر
والجواهر، فمذهبه يستفاد من قوله: «وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن،
... التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر، ففارق الباطنية بهذه
الدقيقة»[45].

**الوجه السابع**: أنه ما من قول من أقواله صلى الله عليه وسلم إلا وتحته
... وحكمة وخاصية وفائدة، يعرفها من يعرفها، وينكرها من يجهلها.

وهذه الظواهر؛ لا يكون العالم عالماً إلا إذا اطلع على جميع معانيها،
... عن حكمها.

قال أبو حامد يبين ضرورة استنباط العالم لأسرار أقواله صلى الله عليه
وسلم واكتناه حكم أفعاله، وأنه بذلك ينال رتبة العالم، قال بعد كلام: «ثم
... صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول،
... أن يكون حريصاً على فهم أسراره؛ فإن المقلد إنما يفعل لأن صاحب
الشرع صلى الله عليه وسلم فعله، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه، فينبغي أن
... شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال؛ فإنه إن اكتفى بحفظ ما

---

(45) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب العلم،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**،
... ص ٦٩.

يقال: كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً، ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار»[٤٦].

ومن هذا الباب أيضاً؛ ما ورد في «كتاب أسرار الطهارة» من **الإحياء**، حيث قال أبو حامد ـ رحمه الله: «العالم لا يكون وارثاً للنبي (ﷺ) إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة، حتى لا يكون بينه وبين النبي (ﷺ) إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة»[٤٧].

**الوجه الثامن**: قد أسرفت الفرق في تكفير بعضها بعضاً في هذه المسألة، فالحنبلي يكفر الأشعري، زاعماً أنه كذب الرسول (ﷺ) في إثبات التفوق لله تعالى، وفي الاستواء على العرش، والأشعري يكفره زاعماً أنه مشبه وكذب الرسول (ﷺ) في أنه ليس كمثله شيء[٤٨].

وإنما الباعث على تخاصم أهل الكلام، وغلوهم وإسرافهم في تكفير بعضهم بعضاً؛ ذكرهم مسائله من غير التفات إلى ما تنطوي عليه من الحكمة، ولا احتفاء بما يندرج تحتها من القصد والمعنى.

ونحن فلا ينجينا من هذه الورطة إلا أن نعتبر المقاصد؛ فإنها تعصم صاحبها من المزالق والمتالف.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقول أبي حامد في كتاب **حقيقة القولين** تصنيفه، حيث صرح بأن: مقاصد الشرع قبلة المجتهدين، من توجه إلى جهة منها أصاب الحق[٤٩].

وقد كان هذا شرف الصحابة (رضي الله عنهم)، فإنهم اختلفوا في مسائل شتى، من غير أن يفضي بهم ذلك إلى تكفير بعضهم بعضاً.

---

(٤٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٩.

(٤٧) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب أسرار الطهارة،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٢٠٠.

(٤٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ص ٧٩.

(٤٩) أورده الإمام جلال الدين السيوطي في: جلال الدين السيوطي، **الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض**، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد (الإسكندرية: طبعة مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤)، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

وحسبنا من أمثلة ما اختلفوا فيه مسألة العطاء، فقد كان مذهب أبي بكر (رضي الله عنه) فيها التسوية بين المسلمين من غير زيادة ولا نقصان، ولا تفضيل بزيادة علم ولا سابقة في الإسلام؛ وراجعه عمر (رضي الله عنه) في ذلك، فقال: إنما الدنيا بلاغ، وإنما فضلهم في أجورهم، فلما رجعت الخلافة إلى عمر (رضي الله عنه) كان يقسم على التفاوت[٥٠].

**الوجه التاسع**: يستند الإمام ابن تيمية، وغيره من الحنابلة، في إبطال التأويل إلى مسلك السلف، وأعني بالسلف الصحابة والتابعين؛ فإنهم حملوا تلك الأخبار على ظواهرها، ولم يشتغلوا بتأويلها. قال ابن تيمية حكاية عن القاضي أبي يعلى صاحب كتاب **إبطال التأويل**، ما نصه: «ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها، ولا صرفوها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة»[٥١].

والجواب عنه بتقرير أبي حامد جواز ذلك بعد انصرام عصر الصحابة والتابعين. ولكن لا بد أن يتقدم قبل ذلك فيبين علة سكوتهم عن تأويلها.

قال أبو حامد: «ولما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا في الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعي وتشويش القلوب، فمن خالفهم في ذلك الزمان، فهو الذي حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك في القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالإثم. أما الآن وقد فشا ذلك في بعض البلاد، فالعذر في إظهار شيء من ذلك رجاء لإماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر، واللوم عن قائله أقل»[٥٢].

فهذا كلام سديد سائغ.

وقوله ـ رحمه الله: «في إظهار شيء من ذلك»، يعني به تأويلها وبيان معانيها وكشف حقائقها، كما يدل على ذلك سياق العبارة، وكما يدل عليه بعض كلامه الذي قبل هذا.

---

(٥٠) انظر: المصدر نفسه، ص ١٨٢ ـ ١٨٣، والغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، ج ٢، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.
(٥١) ابن تيمية الحراني، **الفتوى الحموية الكبرى**، ص ٥٣.
(٥٢) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ٧٩.

**الوجه العاشر**: المعاني والأسرار المستنبطة عن طريق التأويل، يجب أن تكون موافقة لقصد الشارع الحكيم، ولا تكون موافقة إلا إذا كان التأويل صحيحاً مقطوعاً به غير مظنون.

ويحصل القطع بصحة التأويل بأمرين؛ ذكرهما أبو حامد في كتابه **إلجام العوام عن علم الكلام**[٥٣].

أما **أحدهما**، فأن يكون المعنى مقطوعاً ثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة.

وأما **الثاني**، فهو أن لا يكون اللفظ محتملاً إلا لأمرين، وقد بطل أحدهما وتعين الثاني.

مثاله قوله تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[٥٤]؛ فإنه إن ظهر في وضع اللسان أن الفوق لا يحتمل إلا فوقية المكان أو فوقية الرتبة، وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس، لم يبق إلا فوقية الرتبة؛ كما يقال: السيد فوق العبد، والزوج فوق الزوجة، والسلطان فوق الوزير. فالله فوق عباده بهذا المعنى، وهذا كالمقطوع به في لفظ الفوق، وأنه لا يستعمل لسان العرب إلا في هذين المعنيين.

أما لفظ الاستواء إلى السماء وعلى العرش؛ ربما لا ينحصر مفهومه في اللغة هذا الانحصار، وإذا تردد بين ثلاثة معان، معنيان جائزان على الله تعالى، ومعنى واحد وهو الباطل، فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين يكون بالظن وبالاحتمال المجرد. وهذا تمام النظر في الكف عن التأويل»[٥٥].

**الوجه الموفي أحد عشر**: الحنابلة وإن بالغوا في ملازمة الظواهر، فهم مضطرون إلى التأويل وقائلون به.

قال أبو حامد، يقرر هذا المعنى ويؤكده: «وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه. فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل ـ رحمة الله عليه، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة هو الوجود العقلي والوجود الشبهي، والحنبلي مضطر إليه وقائل به،

---

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٥٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ١٨.

(٥٥) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٨٠.

فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون: إن أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط:

**أحدهما** قوله صلى الله عليه وسلم: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض».

**والثاني** قوله صلى الله عليه وسلم: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن».

**والثالث**: قوله صلى الله عليه وسلم: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين»[٥٦].

ثم قال في أثره: «وإنما اقتصر أحمد بن حنبل على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة؛ لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر؛ لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي، ولو أمعن لظهر له ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله، والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة..»[٥٧].

فابن تيمية رحمه الله ضرب على غرار ابن حنبل، وبالغ في الجمود على الظواهر الواردة في هذا الباب. وأما أبو حامد الغزالي فقد اطلع على طريق التلفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحقق أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرف أن الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم.

قال أبو حامد ـ رحمه الله ـ بعد كلام: «وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله ـ يعني انحلال الفلاسفة ـ وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه، نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة؛ فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه.

---

(٥٦) الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، ص ٨٣، والحديث **الأول**: أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر، والحديث **الثاني**، أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، والحديث **الثالث**: أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة من حديث قال فيه: «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن» ورجاله ثقات. انظر: ابن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٥٧) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ٨٣ ـ ٨٤.

فأما من يأخذ هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم، ولا يتعين له موقف. والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله»[٥٨].

فهذه الوجوه الأحد عشر محكمة التنسيق، ناصعة التعبير، جمة الفوائد، قريبة المنال، رحيبة المجال، بعيدة الأمد، فليصعد المتأمل فيها نظره وليصوبه، تلمع له من مضامينها بوارق نجاح أبي حامد، وتلوح له أشراط فوزه.

وقد تتبين أن بعضها يخص مسألة الاختصاص بالجهة، وبعضها عام يشملها ويشمل غيرها من الظواهر.

فلأترك هذا؛ ولأرجع إلى ما كنت فيه وبصدده، فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده، ولأذكر من أسرار الظواهر ما يعظم الانتفاع به.

٢ ـ **في النزول**: هذا الوصف لم يرد في القرآن، لكنه ورد في الخبر عن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، حتى يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[٥٩].

هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الإسناد، ولا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق سوى هذه من أخبار العدول عن النبي (ﷺ)، كذا قال ابن عبد البر في **شرح الموطأ** لما تكلم على شرح حديث النزول[٦٠].

فإذا ثبت هذا؛ فاعلم أن كلام أبي حامد على هذا الحديث من نوعين:

### النوع الأول: بيان النزول

يذهب الإمام الغزالي إلى أن المقصود بالنزول في هذا الحديث شيء آخر سوى الانتقال، ويقرر ذلك من وجهين:

---

(٥٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ١٤٥.

(٥٩) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب صلاة المسافرين وقصرها،» باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، الحديث ٧٥٨، ج ٦، ص ٣٢.

(٦٠) ابن تيمية الحراني، **الفتوى الحموية الكبرى**، ص ٥١.

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[٦١].

قال أبو حامد: «وما رئي البعير والبقر نازلاً من السماء بالانتقال، بل هي مخلوقة في الأرحام، ولإنزالها معنى لا محالة، كما قال الشافعي: «دخلت مصر فلم يقيموا كلامي، فنزلت ثم نزلت ثم نزلت»، فلم يرد به انتقال جسده إلى أسفل، فتحقق المؤمن قطعاً أن النزول في حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول؛ وهو انتقال شخص وجسد من علو إلى أسفل، فإن الشخص والجسد جسم؛ والرب جل جلاله ليس بجسم»[٦٢].

الوجه الثاني: أنه إن كان المقصود من نزوله إلى السماء الدنيا ليسمعنا نداءه وقوله، فهذا المقصود ما حصل، فأي فائدة في نزوله؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا.

بهذا القدر يعرف العامي أن ظاهر النزول باطل.

ويوضح الغزالي هذا بمثال؛ وهو: «أن يريد من في الشرق إسماع شخص في المغرب ومناداته، فيتقدم إلى المغرب بأقدام معدودة، وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع، فيكون نقله الأقدام عملاً باطلاً وفعلاً كفعل المجانين، فكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل»[٦٣].

وإذا لم يكن النزول هو الانتقال من مكان إلى مكان، فلا معنى له إلا اللطف والهداية والرحمة وكشف الحجاب، وتحريك داعية العبد وهمته للمواظبة على العبادة والطاعة وهو:

النوع الثاني: بيان أسرار الحديث وفوائده

قال أبو حامد يبين فوائد هذا الحديث: «فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب في قيام الليل، وله تأثير عظيم في تحريك الدواعي للتهجد الذي هو أفضل العبادات، فلو ترك هذا الحديث لبطلت هذه الفائدة العظيمة، ولا سبيل إلى إهمالها، وليس فيه إلا إيهام لفظ النزول عند الصبي والعامي الجاري مجرى الصبي»[٦٤].

---

(٦١) القرآن الكريم، «سورة الزمر» الآية ٦.
(٦٢) الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام، ص ٦.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.

قال ذلك رداً على قوم توهموا أن النزول حقيقي، فتركوا رواية هذا الخبر. وذلك تعطيل لكلام رسول الله (ﷺ)، وتعطيل لفوائده، ولو كان الأمر على ما يقولون لما رواه الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعون، فما رووه إلا لأنهم سمعوه يقيناً، وما نقلوا إلا ما تيقنوه، والتابعون قبلوه ورووه، وما قالوا: قال رسول الله (ﷺ) كذا، بل قالوا: قال فلان قال رسول الله (ﷺ) كذا، وكانوا صادقين، وما أهملوا روايته لاشتمال هذا الحديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقياً يفهمه منه، ليس ذلك ظنياً في حقه[٦٥].

وقد ذكرت كلام ابن عبد البر في صحة الحديث وثبوته في صدر هذه المسألة.

وإذا أطنبت في هذا الأمر، فلأقبض العنان، ولأرجع إلى ذكر شيء من أسرار حديث النزول وفوائده.

فقد أورد الإمام الغزالي في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد** كلاماً أبين وأحسن تفسيراً؛ فإنه قال بعد كلام: «النزول بمعنى اللطف والرحمة، وترك الفعل اللائق بالاستغناء وعدم المبالاة فهو ممكن، فيتعين التنزيل عليه. وقيل: إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**رفيع الدرجات ذو العرش**﴾[٦٦]، استشعر الصحابة رضوان الله عليهم من مهابة عظيمة، واستبعدوا الانبساط في السؤال والدعاء مع ذلك الجلال، فأخبروا أن الله سبحانه وتعالى مع عظمة جلاله وعلو شأنه متلطف بعباده رحيم بهم، مستجيب لهم مع الاستغناء إذا دعوه، وكانت استجابة الدعوة نزولاً بالإضافة إلى ما يقتضيه ذلك الجلال من الاستغناء وعدم المبالاة، فعبر عن ذلك النزول تشجيعاً لقلوب العباد على المباسطة بالأدعية، بل على الركوع والسجود؛ فإن من يستشعر بقدر طاقته مبادئ جلال الله تعالى استبعد سجوده وركوعه؛ فإن تقرب العباد كلهم بالإضافة إلى جلال الله سبحانه، أخس من تحريك العبد أصبعاً من أصابعه على قصد التقرب إلى ملك من ملوك الأرض، ولو عظم به ملكاً من الملوك لاستحق به التوبيخ. . . فلولا النزول عن مقتضى ذلك الجلال باللطف والرحمة والاستجابة لاقتضى ذلك الجلال أن يبهت القلوب عن الفكر، ويخرس الألسنة عن الذكر، ويخمد الجوارح عن الحركة، فمن لاحظ ذلك الجلال وهذا اللطف استبان له على القطع أن عبارة

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٦٦) **القرآن الكريم**، «سورة غافر،» الآية ١٥.

ـرول مطابقة للجلال، ومطلقة في موضوعها لا على ما فهمه الجهال»[٦٧].

فقد تبين أن المقصود من النزول في الحديث نزول رحمته إلى الأرض.

ويتعين الآن ذكر علة تخصيص السماء الدنيا بهذا الفعل، وعلة تخصيص ـيـني به.

فأما تخصيص السماء الدنيا، فلأجل أنه «عبارة عن الدرجة الأخيرة التي ـ درجة بعدها. كما يقال: سقط إلى الثرى وارتفع إلى الثريا، على تقدير أن ـريـ أعلى الكواكب، والثرى أسفل المواضع»[٦٨].

وأما تخصيص ذلك الوقت بذلك الفعل؛ فلأجل أن «الخلوات مظنة ـعوات، والليالي أعدت لذلك، حيث يسكن الخلق، وينمحي عن القلوب ـكرهم، ويصفو لذكر الله تعالى قلب الداعي، فمثل هذا الدعاء هو المرجو ـستجابة، لا ما يصدر عن غفلة القلوب عند تزاحم الاشتغال»[٦٩].

فهذه كلمات أبي حامد مبسوطة العبارة، مشبعة الفصول، مقبولة ـضب، حسنة التحرير، قوية اللداد، شديدة المراء. لم يدخر ـ رحمه الله ـ ـسعاً في بيان المقصود من النزول، ولم يأل جهداً في تنزيه الرب سبحانه عن ـسمية وعوارضها.

٣ ـ **في الهرولة**: هذه اللفظة غير مذكورة في القرآن، لكنها مذكورة في ـحـر. ما روي عن النبي (ﷺ): «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن ـي يمشي أتيته بهرولة»[٧٠].

هذه اللفظة مخيلة معنى خطأ عند الجاهل، ومفهمة معنى صحيحاً عند ـعـلـم. فذلك قول أبي حامد في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد**: «فإن الهرولة ـ ـجاهل تدل على نقل الأقدام وشدة العدو، وكذا الإتيان يدل على القرب ـي ـمسافة. وعند العاقل يدل على المعنى المطلوب من قرب المسافة بين

---

(٦٧) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص ٤٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٧٠) الحديث أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، انظر: **صحيح مسلم**، ـ ـذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،» باب الحث على ذكر لله تعالى، الحديث ٢٦٧٥، ـ ... ص ٣.

الناس، وهو قرب الكرامة والإنعام، وإن معناه: أن رحمتي ونعمتي أشد انصباباً إلى عبادي من طاعتهم إلي»[٧١].

ويضاهي هذا الكلام ما ذكره الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث، قال: «ومعناه من تقرب إلي بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زدت؛ فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة، أي: صببت عليه الرحمة وسبقته بها؛ ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه»[٧٢].

٤ ـ **في اليمين**: هذه اللفظة وردت في القرآن والأخبار.

أما القرآن؛ فقوله تعالى: ﴿**والسموات مطويات بيمينه**﴾ وقوله، ﴿**لأخذنا منه باليمين**﴾[٧٣].

وأما الأخبار فكثيرة.

**الخبر الأول**: قوله عليه السلام: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين»[٧٤]

**الخبر الثاني**: عن أبي هريرة أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، فأين ملوك الأرض»[٧٥]

**الخبر الثالث**: وهو الذي أورده حجة الإسلام في كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد**، قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحجر الأسود: «إنه يمين الله في الأرض»[٧٦].

---

(٧١) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٧٢) شرف الدين النووي، **صحيح مسلم بشرح النووي** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ج ١٧، ص ٤.

(٧٣) **القرآن الكريم**: «سورة الزمر،» الآية ٦٧، و«سورة الحاقة،» الآية ٤٥ على التوالي.

(٧٤) أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عمر، انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب الإمارة،» باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، الحديث ١٨٢٧، ج ١٢، ص ١٧٧.

(٧٥) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: المصدر نفسه: «كتاب صفات المنافقين وأحكامهم،» و«كتاب صفة القيامة والجنة والنار،» الحديث ٢٧٨٧، ح ١٧، ص ١٠٩.

(٧٦) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص ٣٧. والحديث أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر. انظر: ابن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ١، ص ١٤٥.

هذا الخبر مما يجب المصير فيه إلى التأويل، والغوص على معناه المقصود؛ لأنه لو حمل على ظاهره لأفهم معنى خطأ.

قال أبو حامد يقرر ذلك: «يظن الجاهل أنه أراد اليمين المقابل للشمال التي هي عضو مركب من لحم ودم وعظم منقسم بخمسة أصابع. ثم إنه إن فتح بصيرته على أنه كان على العرش، ولا يكون يمينه في الكعبة، ثم لا يكون حجر أسود فيدرك بأدنى مسكة أنه استعير للمصافحة؛ فإنه يؤمر باستلام الحجر وتقبيله، كما يؤمر بتقبيل يمين الملك، فاستعير اللفظ لذلك، والكامل العقل البصير لا تعظم عنده هذه الأمور، بل يفهم معانيها على البديهة»[٧٧].

وإلى هذا المعنى أيضاً؛ الإشارة بقوله في «كتاب قواعد العقائد» من **الإحياء** حيث قال: «وحمل قوله صلى الله عليه وسلم: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» على التشريف والإكرام؛ لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال»[٧٨].

ويضاهي هذا الخبر؛ أنه «صلى الله عليه وسلم سمى الكعبة بيت الله تعالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان، وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه. أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه، فلا يشك عند سماع هذا اللفظ في أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه، بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت، أو معنى سواه، غير ما وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه»[٧٩].

فهذا ضرب من التأويل، استعماله حسن سائغ غير منكور، وذلك لأن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه.

٥ ـ **في الأصبع**: هذه اللفظة غير واردة في القرآن، ولكنها واردة في الحديث.

من ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال: «كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا، «يا رسول الله «آمنا بك» وبما جئت به فهل تخاف علينا»؟ فقال: «القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء».

---

٧٧) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٣٧ ـ ٣٨.
٧٨) الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» ج ١، ص ١٥١.
٧٩) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ١٠٠.

ليس المراد من الأصبع في هذا الخبر العضو الجسماني، كما قد يتوهمه الجاهل، وإنما المقصود معنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلاً، استعير هذا اللفظ له. فذلك قول أبي حامد في **الاقتصاد في الاعتقاد** تأليفه: «هذا الحديث يخيل عند الجاهل عضوين مركبين من اللحم والعظم والعصب مشتملين على الأنامل والأظافر، نابتين من الكف، وعند العالم يدل على المعنى المستعار له دون الموضوع له، وهو ما كان الأصبع له، وكان سر الأصبع وروحه وحقيقته، وهو القدرة على التقليب كما يشاء»[٨٠].

وقد تكلم الغزالي على هذا الحديث في مواضع كثيرة من تواليفه، فأكتفي بالتنبيه إلى موضع واحد. وهو ما ورد في كتاب **جواهر القرآن ودرره**، ولفظه: «فإن روح الأصبع القدرة على سرعة التقليب، وإنما قلب المؤمن بين لمة الملك وبين لمة الشيطان، هذا يغويه، وهذا يهديه، والله تعالى بهما يقلب قلوب العباد، كما تقلب الأشياء أنت بأصبعك، فانظر كيف شارك نسبة الملكين المسخرين إلى الله تعالى أصبعيك في أصبعيه وخالفا الصورة»[٨١].

ففي هذا الكلام تنزيه الله تعالى عن الجسمية وعوارضها وذلك هو المقصود.

وقد نجد لبعض المحققين مثل ما ذكره الإمام الغزالي، كالإمام ابن حزم؛ فإنه قال مبيناً معنى هذا الحديث: «أي بين تدبيرين ونعمتين من تدبير الله عز وجل ونعمه، إما كفاية شره، وإما بلاء يأجره عليه، والأصبع في اللغة: النعمة. وقلب كل أحد بين توفيق الله وجلاله، وكلاهما حكمة»[٨٢].

وذكر الإمام فخر الدين الرازي في كتابه **أساس التقديس**، لما تكلم على شرح هذا الحديث، أنه يتضمن «سراً لطيفاً»، فقال: «وذلك لأن المتصرف في البدن هو القلب، والقلب لا ينفك عن الفعل والترك، والفعل موقوف على حصول الدواعي إلى الفعل، والترك موقوف على عدم حصول تلك الدواعي. ولا خروج عن هاتين الحالتين؛ لأن الخروج عن طرفي النقيض محال. ثم إن حصول الداعي إلى الفعل من الله تعالى، ولا حصول له من العبد، وإلا لافتقر العبد في تحصيل ذلك الداعي إلى داع آخر، ويلزم التسلسل وهو

(٨٠) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص ٣٧.

(٨١) الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، ص ٣٥.

(٨٢) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، ط ٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٦)، ج ٢، ص ٣٤٨.

محال. فثبت أن القلب واقع بين هاتين الحالتين. فإن حصل فيه ما يدعوه إلى الفعل أقدم على الفعل، وإن لم يحصل فيه ذلك، بقي على الترك. فحصول هاتين الحالتين في قلوب المؤمنين للفعل والترك، كالأصبعين المؤثرين في تقليب الأشياء، وتقليب القلب بسبب هاتين الداعيتين، يشبه تقليب الشيء المأخوذ بالأصبعين من حال إلى حال. وكما أن الإنسان يتصرف في الشيء المأخوذ بأصبعه بتلك الأصابع، فالحق سبحانه وتعالى يتصرف في قلوب عباده بواسطة خلق تلك الدواعي. وهذه النكتة هي السر الأعظم، والقانون الأشرف في مسألة القضاء والقدر، وقد عبر النبي (ﷺ) بهذه اللفظة الوجيزة والنكتة الشريفة عن هذا السر اللطيف»[٨٣].

٦ ـ **في اليد**: هذه اللفظة قد وردت في الأخبار والقرآن.

أما القرآن فقد وردت هذه اللفظة بصيغة الوحدان تارة، وبصيغة التثنية أخرى، كقوله تعالى: ﴿**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾، وقوله: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[٨٤].

وأما الأخبار فكثيرة.

من ذلك ما تواتر النقل عن النبي (ﷺ) أنه كان يقول: «والذي نفسي بيده»[٨٥].

ومن ذلك أيضاً؛ وهو الذي أورده حجة الإسلام في كتابه **فيصل التفرقة**، قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

يتخيل بعض الناس أن المقصود باليد هنا الجارحة، وهذا التخيل يقع من الجمود على ظواهر الآيات والأخبار، وأما من عرف حقيقة المسألة فإنه لا يمكنه حمل لفظ اليد في حق الله تعالى على الجارحة.

---

(٨٣) فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **أساس التقديس**، تحقيق أحمد حجازي السقا (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦)، ص ١٧٨.

(٨٤) **القرآن الكريم**: «سورة ص،» الآية ٧٥، و«سورة المائدة،» الآية ٦٤ على التوالي.

(٨٥) من ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك، انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها،» باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، الحديث ٢٨٧٤، ج ١٧، ص ١٧٠.

قال أبو حامد عند كلامه على قوله تعالى: ﴿**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾ في كتابه **الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل**: «والله عز وجل لا يد له، وإنما المراد؛ خلقته بقدرتي، إشارة إلى أنه لم يُكوّن من مني، وإنما كوّن بقدرته»[٨٦].

فهذا تأويل سديد، والذي يدل على سداده أن كمال حال هذا العضو إنما يظهر بالصفة المسماة بالقدرة، ولما كان المقصود من اليد حصول القدرة أطلق اسم القدرة على اليد.

وإذا ثبت هذا؛ فقد ظهر الوجه في قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً».

قال أبو حامد لما تكلم في كتابه **فيصل التفرقة** على شرح هذا الحديث ما لفظه: «فقد أثبت ـ يعني النبي (ﷺ) ـ لله تعالى يداً، ومن قام عنده البرهان على استحالة يد الله تعالى هي جارحة محسوسة أو متخيلة؛ فإنه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية، أعني أنه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها. إن روح اليد ما به يبطش ويفعل ويعطي ويمنع. والله تعالى يعطي ويمنع بواسطة ملائكته»[٨٧].

واعلم أن الأحاديث في هذا القسم كثيرة، لا يمكن حمل لفظ اليد فيها جميعاً في حق الله تعالى على الجارحة.

وللإمام المدقق فخر الدين الرازي في هذه الأحاديث كلام في غاية الحسن والسداد، أنقله عنه بتمامه لما فيه من الفائدة.

قال ـ رحمه الله ـ في كتابه **أساس التقديس** ما نصه: «وأما الأحاديث، فنقول: أما قوله صلى الله عليه وسلم «خلق آدم بيده[٨٨] وكتب **التوراة** بيده»؛ فذلك حق يدل على أن المراد: التخصيص بمزيد الكرامات، وكذا قوله:

---

(٨٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل**، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، ط ٣ (بيروت: دار الجيل؛ القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٩٠)، ص ١٦٧.

(٨٧) الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، ص ٨٢.

(٨٨) ذكر نحوه الحكيم الترمذي في **نوادر الأصول** ولم يصرح بأنه حديث. انظر: أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، **نوادر الأصول من أحاديث الرسول**، تحقيق عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢)، ج ٤، ص ٦٦.

كتب بيده على نفسه أن رحمتي سبقت غضبي»(٨٩). وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يفتح أبواب السماء في ثلث الليل الباقي فيبسط يده»(٩٠) فالمراد: إفاضة النعمة، وإيصال الرحمة والمغفرة إلى المحتاجين. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «الصدقة تقع في يد الرحمن»(٩١)، فالمراد منه: شدة العناية بقبول تلك الصدقات وتكثير الثواب عليها، وكذا المراد بقوله عليه السلام: «**خمر طينة آدم بيده**». وأما قوله عليه السلام: «والذي نفسي بيده»، فالمراد باليد هنا: القدرة»(٩٢).

هذا كلامه.

ووجه الحسن في هذا الكلام أنه يصدق القاعدة التي قررها أبو حامد في الباب الذي قبل هذا الباب؛ وهي أن مبنى العقائد على رعاية مصالح الخلق، وأن الله سبحانه لطيف بعباده، محسن إلى كافتهم برعاية مصالحهم في الدين والدنيا.

**٧ ـ في الصورة**: هذه اللفظة غير واردة في القرآن، لكنه روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»(٩٣).

من لا ينكشف له بنور البصيرة سر هذا الخبر ومقصوده، عرف على لسان الشرع صورته دون معناه.

أما صورته فهي أن يفهم من لفظ «الصورة» أن لله تعالى فماً وأنفاً وخداً، التي هي أجسام وهي لحوم وعظام(٩٤).

---

(٨٩) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب التوبة،» باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، الحديث ٢٧٥١، ج ١٧، ص ٥٧.

(٩٠) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي موسى، انظر: المصدر نفسه، «كتاب التوبة،» باب قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، الحديث ٢٧٥٩، ج ١٧، ص ٦٤.

(٩١) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: المصدر نفسه، «كتاب الزكاة،» باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، الحديث ١٠١٤، ج ٧، ص ٨٦.

(٩٢) الرازي، **أساس التقديس**، ص ١١٦، وقد ذهبت المعتزلة أيضاً إلى أن اليد: «النعمة». انظر: ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٩٣) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها،» باب يدخل الجنة أقوام، أفئدتهم مثل أفئدة الطير، الحديث ٢٨٤١، ج ١٧، ص ١٤٧.

(٩٤) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ٦٣.

وأما معناه المقصود؛ فهو الصفة، فقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته»؛ أي على جهة صفاته وأحواله.

قال الإمام الغزالي في كتابه **المضنون به على غير أهله**، عندما أورد هذا الحديث، ما نصه: «فإنه لما كان تعالى وتقدس موجوداً قائماً بنفسه حياً سميعاً بصيراً عالماً قادراً متكلماً، فالإنسان كذلك، ولو لم يكن الإنسان بهذه الأوصاف موصوفاً لم يعرف الله تعالى، ولذلك قال النبي (ﷺ): «من عرف نفسه فقد عرف ربه». فإن كل ما لم يجد الإنسان له من نفسه مثالاً يعسر عليه التصديق به والإقرار»[٩٥].

فهذا التأويل لائق بجلال الله تعالى؛ إذ فيه تنزيه الحق سبحانه عن مشابهة الأجسام وصفاتها.

فمن فهم هذا المعنى، فقد نزه الله تعالى، ومن خطر له غير هذا، فهو مشبه، وإلى هذا المعنى يرشد كلام أبي حامد في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء**، حيث قال ما نصه: «فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته»، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهاً مطلقاً، كما يقال: كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب **بالتوراة**، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهاً صرفاً ومقدساً فحلاً، واطوِ الطريق فإنك بالواد المقدس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى ﴿**إني أنا ربك**﴾»[٩٦].

فها هنا مقامان؛ أحدهما محبوب مطلوب، والآخر مذموم غير مرغوب، فلينظر امرؤ أين يضع قدمه.

وهذا الحديث؛ وإن كان متعلقاً بآدم (عليه السلام)، فإن ذريته تدخل فيه دخولاً أولياً، ولأجل ذلك فإن مقالة أبي حامد «عندي أسد» من تأويل الفخر الرازي له. فإنه بعدما صرح بأن المراد من الصورة الصفة، قال ما لفظه: «فيكون

---

(٩٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المضنون به على غير أهله**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ١٣٢.

(٩٦) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٣٣، **والقرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ١٢.

ـعنى: أن آدم امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالمعقولات، ... على استنباط الحرف والصناعات، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات ... تعالى من بعض الوجوه»[٩٧].

فجعل معنى الحديث مخصوصاً بآدم (عليه السلام) دون سواه.

على أني أنصف ولا أنكر أن يكون الغرض من إضافة الصورة إلى ... سبحانه الدلالة على أن هذه الصورة ممتازة عن سائر الصور بمزيد ... ـة والجلالة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للتخلق بأخلاقه، والتحلي بمعاني صفاته، إنه ... ولي الهداية والتوفيق.

فهذا صفو مقصود مذهب أبي حامد في هذه الأخبار، ومنهجه في تذليل ... والكشف عن معانيها ومقاصدها؛ فإن مدارها جميعاً على نفي ... ـسية عن الله تعالى.

ويتمادى هذا المنهج إلى جميع الظواهر، تركت ذكرها تنبيهاً بما ذكرته ... أهملته.

وهذا المعنى يقرره قول أبي حامد في كتابه **إلجام العوام عن علم** ... فإنه قال: «فكذلك جميع الألفاظ الموهمة في الأخبار؛ يكفي في دفع ... ـها قرينة واحدة وهي معرفة الله، وأنه ليس بجسم، وليس من جنس ... وهذا مما افتتح رسول الله (ﷺ) بنيانه في أول البعثة قبل النطق ... الألفاظ»[٩٨].

فإذا ظهر هذا؛ فأريد الآن أن أذكر ما عنى لي من الفوائد والأسرار من ... ـنائل.

**الفائدة الأولى**: قال أبو حامد في «كتاب أدب السماع والوجد» من **الإحياء** ...: «ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى»[٩٩].

---

(٩٧) الرازي، **أساس التقديس**، ص ١١٥.

(٩٨) الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، ص ١٠١.

(٩٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب أدب السماع والوجد،» في: الغزالي، **إحياء** ... الدين، ج ٢، ص ٤٠٦.

فكذلك أقول: لا يجوز تنزيل هذه الألفاظ إلا على ما قصد صاحب الشرع. وهذه المعاني التي ذكرها أبو حامد لائقة بجلال الله تعالى؛ فإن مدارها على تقديس الحق سبحانه، ونفي التشبيه عنه، وتنزيهه عن الجسمية وعوارضها. وذلك صفو مقصود الشرع، فيتعين التنزيل عليها.

**الفائدة الثانية**: اعلم أن المعاني عند أبي حامد مقصودة بالقصد الأول، والألفاظ مقصودة بالتبع، فمن يسر له النظر إلى ما كان مقصوداً قصداً أولياً، فطالع در الألفاظ واستقصى دقائق الحكمة فيها، فهو على صراط مستقيم، وأما المعرض عن المعاني والأسرار، مكتفياً بظواهر الأخبار، فما أراه إلا مخنثاً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذباً بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وقد عبر أبو حامد عن هذا المعنى بقوله: «ومن ينظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما يتحير من كثرتها، ويتخيل كثرة المعاني، والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلاً، والألفاظ تابعة، وأمر الضعيف بالعكس منه؛ إذ يطلب الحقائق من الألفاظ، وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى ﴿**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم**﴾[١٠٠].

**الفائدة الثالثة**: مما يستنبط على الخصوص من قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته» التحلي بمعاني صفاته تعالى، والتخلق بأخلاق الربوبية، فلا ينبغي أن يقتصر العبد على اقتباس الأنوار، بل يضيف إليها اقتباس الأحوال والآثار، وذلك بأن لا يقرأ آية أو خبراً في الباب إلا ويصير بصفته، وعند ذكر الله تعالى وصفاته وأسمائه، يتطأطأ ويتصاغر حتى كأنه ينمحق من مشاهدة الجلال[١٠١].

**الفائدة الرابعة**: المعاني المستنبطة من هذه الظواهر مدارها جميعاً على رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم، وإيضاحه أنه قد تبين في مسألة الاختصاص بجهة العلو، أنه سبحانه متلطف بقلوب العباد، وتقرر في حديث النزول أن المقصود نزول رحمته إلى الأرض، وبان في حديث الهرولة أن

---

(١٠٠) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **مشكاة الأنوار**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ج ٢٤، ص ٢٥، و**القرآن الكريم**، «سورة الملك،» الآية ٢٢.

(١٠١) الغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، ص ٣٢.

المقصود بهرولة الحق سبحانه إلى العبد؛ عطفه عليه وعنايته به وإنعامه عليه، وتقرر في الكلام على أخبار اليد أنه ينبغي حمل ذلك جميعه على المبالغة في الحفظ والحراسة وشدة العناية.

وبهذا يتبين أن الله عز وجل لطيف بعباده، رؤوف بهم، محسن إلى بريته، بل أقول: إنه سبحانه إذا قيس إحسانه إلى خلقه ورحمته لهم، وشفقته عليهم، وما جلبه لهم من الخير، وما دفعه عنهم من الشر، وما بينه لهم مما هو لائق بجلاله، ثم يسر لهم اعتقاده، ثم وفقهم للعمل بمقتضاه، كان ما يصنعه الوالد لولده بالنسبة إلى هذا تافهاً حقيراً.

والآيات التي في القرآن في التنبيه على هذا المعنى كثيرة:

مثل قوله تعالى: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾[١٠٢].

وقوله عز وجل: ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾[١٠٣].

وقوله سبحانه: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون**﴾[١٠٤].

وقوله جل وعلا: ﴿**وكان بالمؤمنين رحيماً**﴾[١٠٥].

وهلم جرا إلى نظائر هذه الآيات.

وإذن؛ فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى ما ابتدأت به في القسم الأول، من أن العقائد الإلهية متكفلة برعاية مصالح العباد في دينهم ودنياهم.

**الفائدة الخامسة**: قد تقدم غير مرة أن معرفة الله تعالى، ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصود الأقصى من علوم القرآن. وإذا كان الأمر كذلك؛ فمن أحاط بمعاني تلك الألفاظ خبراً، وأدرك مقاصدها الكبرى، وفحص عن أسرارها حتى أشرقت أنوارها، فهو الذي يقال فيه: إنه عرف الله تعالى حق معرفته؛ لأنه بمعرفته فهو غير متعرض لخطر التشبيه والتجسيم، ومن لم يقف عليها، فيوشك أن يعتقد في الله تعالى غير الرأي السديد، ويوم القيامة يقال له: ﴿**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾[١٠٦].

---

١٠٢) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١٤٣.
١٠٣) المصدر نفسه، «سورة الأنعام،» الآية ١٢.
١٠٤) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٦.
١٠٥) المصدر نفسه، «سورة الأحزاب،» الآية ٤٣.
١٠٦) المصدر نفسه، «سورة ق،» الآية ٢٢.

**الفائدة السادسة**: من البين من كلام أبي حامد أن هذه الألفاظ يجب تأويلها وكشف الغطاء عن حقائقها، واجتناء أسرارها المدفونة؛ لأنها لو أجريت على ظاهرها لأفضت إلى التشبيه والتجسيم. ويدل على صحة هذا الوجه أن صاحب الشرع في العقائد التي تعبد الخلق بها قاصد إلى تنزيه الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[١٠٧].

فتبين أنه لا بد من المصير إلى التأويلات. على أن التأويل ينبغي أن يكون صحيحاً مقطوعاً به غير مظنون. ويعرف كون التأويل مقطوعاً بصحته بأمرين، سبق إيضاحهما.

**الفائدة السابعة**: هذه الأسرار لا يضطلع بمعرفتها كل من دب ودرج، أو فكر وأدلج، بل الحق جل اسمه هو الذي يهدي كل أحد بنور معرفته إلى المعارف الحقيقية، ويقفه بإضاءته على دقائق الأمور الإلهية. فمن هدي إلى ذلك، فهو الذي جعل الله له نوراً يمشي به بين الناس، ومن لم يهد لذلك فهو في الظلمات ليس بخارج منها.

فأسأله تعالى أن يبدي لنا ما ووري عنا من أسرار ذاته، ومعاني صفات ذاته، إنه الكريم الواسع الرحمة، العظيم المنة.

---

(١٠٧) المصدر نفسه، «سورة الشورى» الآية ١١.

# الفصل الرابع

## في أسمائه تعالى وصفاته

الكلام على الأسماء والصفات رديف للكلام على الذات، وهو تابع له وتتمة.

وإذا كانت معرفة الذات أضيق المعارف مجالاً، كما تقدم بيانه؛ فإن ـجال في الأسماء والصفات أفسح، ونطاق النطق فيها أوسع[1]. ولهذا نجد ـ حامد قد استقصى الكلام على معانيهما وأسرارهما تفصيلاً وتأصيلاً، بحيث ـشف الغطاء، وأكمل الشفاء، وأتى باليد البيضاء.

وأنا أورد ما يكشف لنا عن رأيه، ويبين لنا وجه مذهبه. ويتكفل بهذا ـكشف والبيان مبحثان: **أحدهما** جملي **والآخر** تفصيلي.

ولا بد قبل الشروع في بيان المطلوب من الإشارة إلى أن الخوض في ـ المقام، وإن كان أفسح وأوسع، فإنه ميدان عسير جداً، ويكع عن فهم ـر أسمائه تعالى ودرك مقاصد صفاته، أكابر العلماء فضلاً عن غيرهم. ـ عين ما ذكره أبو حامد في مقدمة كتابه **المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى**، حيث قال ما لفظه: «فقد سألني أخ في الله ـ يتعين في ـين إجابته ـ شرح معاني أسماء الله الحسنى، وتواردت علي أسئلته تترى، ـ أزل أقدم فيه رجلاً وأوخر أخرى، تردداً بين الانقياد لاقتضائه، قضاء حق إخائه، وبين الاستعفاء عن التماسه، أخذاً بسبيل الحذر، وعدولاً عن

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤ـ)، ص ١٤.

ركوب متن الغرر، واستقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر.

وكيف لا! وللبصير عن خوض مثل هذه الغمرة صارفان:

**أحدهما**: أن هذا الأمر في نفسه عزيز المرام، صعب المنال، غامض المدرك، فإنه في العلو في الذروة والمقصد الأقصى، الذي تتحير الألباب فيه، وتنخفض أبصار العقول دون مباديه، فضلاً عن أقاصيه.

ومن أين للقوى البشرية أن تسلك في صفات الربوبية سبيل البحث والفحص والتفتيش؟ وأنى تطيق نور الشمس أبصار الخفافيش؟!

**والثاني**: أن الإفصاح عن كنه الحق فيه يكاد يخالف ما سبق إليه الجماهير. وفطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير. وجناب الحق يجل عن أن يكون شرعاً لكل وارد، أو يتطلع إليه إلا واحد بعد واحد.

ومهما عظم المطلوب قل المساعد. ومن خالط الخلق جدير بأن يتحامى، لكن من أبصر الحق عسر عليه أن يتعامى.

ومن لم يعرف الله تعالى؛ فالسكوت عليه حتم، ومن عرفه فالسكوت له جزم، ولذلك قيل: من عرف الله كل لسانه.

لكن غير في وجه هذه الأعذار، صدق الاقتضاء مع الاضطرار...»[٢].

هذا كله كلام أبي حامد رحمه الله.

## أولاً: الأسماء الحسنى والصفات العليا ومقاصدهما الكبرى

يشتمل هذا المبحث على سبع مسائل:

### ١ ـ في بيان اشتمال الأسماء والصفات على المعاني والأسرار

لقد سبق أن رأينا أن العقائد الشرعية عند أبي حامد تنطوي على معانٍ وأسرار، سوى المفهوم من ظاهرها.

وسنرى الآن من كلامه ـ رحمه الله ـ ما يتضح به أن أسماءه تعالى وصفاته لم تخرج عن هذا الأمر.

---

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ٣ ـ ٤.

من ذلك ما ورد في «كتاب آداب تلاوة القرآن» من **الإحياء**. فبعدما ذكر أبو حامد بأنه يتعين على التالي لكتاب الله العزيز أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، قال: «أما صفات الله عز وجل، فكقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾، و﴿**الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار**﴾[٣]، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين»[٤].

ثم استشهد بأثرين ثم قال: «وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته؛ إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم، ولم يعثروا على أغوارها»[٥].

فبان بهذا؛ أن في فهم معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا متسعاً لأرباب الفهم.

وهذا النص ليس فيه إلا تقرير اشتمال الأسماء والصفات على معان وأسرار من غير شرح وبيان. وهي مبينة بأقصى غايات البيان في كتاب **المقصد الأسنى**، على ما أبسطه في المسألة التي تلي هذه.

## ٢ ـ في بيان المقاصد الكبرى للأسماء والصفات

اعلم أن كل ما يراد لشيء فدون حصول مقصوده يكون ضائعاً. ومقصود الأسماء والصفات عند أبي حامد إنما هو التحلي بمعانيها، ونيلها نيل اتصاف. فمن جرد التفاتة إلى وجهها البراني، أو ظن أنه لا معنى لها إلا ما ترجمه ظاهرها، فدرجته نازلة جداً، وطريق الهداية عليه مسدود.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقول أبي حامد في الفصل الرابع من الفن الأول من كتاب **المقصد الأسنى**؛ قال في أول الفصل: «اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة تفسيره ووصفه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى، فهو

---

(٣) **القرآن الكريم**: «سورة الشورى،» الآية ١١، و«سورة الحشر،» الآية ٢٣ على التوالي.

(٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ٣٩٦.

(٥) الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» ج ١، ص ٣٩٦.

مبخوس الحظ، نازل الدرجة، ليس يحسن أن يتبجح بما ناله»[٦].

فالعاقل ـ إذن ـ من كانت عين نفسه مكحولة بالنظر إلى معانيها، وقدمه موقوفة على مقاصدها، مسافراً بعقله في أسرار الصفات العليا، وما فيها من آيات ربه الكبرى. فذلك الذي يكاد زيت إيمانه يضيء ﴿**ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء**﴾[٧].

فهذا الصنف من الناس عند أبي حامد هم المقربون، وحظهم من معاني أسماء الله الحسنى ثلاثة:

**الحظ الأول**: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة، حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها انكشافاً، يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر[٨].

**الحظ الثاني**: استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات، ليقربوا من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان.

ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة، وعشق لذلك الجلال والجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فينبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة[٩].

**الحظ الثالث**: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات. والتخلق بها والتحلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانياً، أي قريباً من الرب تعالى، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب، فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى[١٠].

ومن نصوص **الإحياء** في تقرير هذا المعنى؛ ما ذكره أبو حامد في

---

(٦) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٢٦.
(٧) **القرآن الكريم**، «سورة النور،» الآية ٣٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧.

معرض بيانه لما يجوز أن يذكر في الكتب وما لا يجوز أن يسطر، من «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا» ولفظه: «فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية؛ من العلم والبر والإحسان واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات»[11].

وهذه الحظوظ الثلاثة العالية، والمعاني الشريفة السامية لا يشك عاقل في صحتها وموافقتها لمقاصد الإلهية.

## ٣ ـ في أن من أسمائه تعالى وصفاته ما لا يجوز للعبد أن يتصف به

مثاله: الكبرياء والعظمة الواردتان في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما أدخلته نار جهنم»[12].

قال أبو حامد في عقب هذا الحديث ما نصه: «والمعنى: أن العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي، فلا تنبغي لأحد غيري، كما رداء الإنسان وإزاره يختص به لا يشارك فيه»[13].

## ٤ ـ في أنه لا مكرر في أسمائه تعالى وصفاته

نجد أسماء الله الحسنى وصفاته العليا مكررة في الكتاب العزيز مرات، بعضها تبلغ المئات. ويبعد أن يجري ذكرها لمجرد التكرار؛ لأن الألفاظ لا تراد لحروفها ومخارج أصواتها، بل لمفهوماتها ومعانيها.

---

(١١) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» في الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٤٠٥.

(١٢) الحديث، أخرجه أبو داود وابن ماجة وابن حبان من حديث أبي هريرة وهو عند مسلم بلفظ: «الكبرياء رداؤه»، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد. انظر: انظر: أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٦٥.

(١٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٧٧.

ويعرف هذا بمثال:

قال أبو حامد عند تفسيره لفاتحة الكتاب في كتابه **جواهر القرآن ودرره** ما عبارته: «وقوله: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾[١٤]؛ نبأ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرهما، ثم تتعلق بالخلق، وهم المرحومون، تعلقاً يؤنسهم به، ويشوقهم إليه، ويرغبهم في طاعته، لا كوصف الغضب؛ لو ذكره بدلاً عن الرحمة فإن ذلك يحزن ويخوف، ويقبض القلب ولا يشرحه...

وقوله ثانياً: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾؛ إشارة إلى الصفة مرة أخرى، ولا تظن أنه مكرر، فلا تكرر في القرآن؛ إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة، وذكر الرحمة بعد ذكر العالمين وقبل ذكر ﴿**ملك يوم الدين**﴾[١٥] ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفصيل مجاري الرحمة.

**إحداهما**، تلتفت إلى خلق رب العالمين؛ فإنه خلق كل واحد منهم على أكمل أنواعه وأفضلها، وآتاه كل ما يحتاج إليه...

**وثانيتهما**، تعلقها بقوله ﴿**ملك يوم الدين**﴾؛ فيشير إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء، عند الإنعام بالملك المؤبد في مقابل كلمة وعبادة، وشرح ذلك يطول»[١٦].

ثم ينبه أبو حامد عقيب هذا الكلام على المقصود بقوله: «والمقصود أنه لا مكرر في القرآن؛ فإن رأيت شيئاً مكرراً من حيث الظاهر، فانظر في سوابقه ولواحقه لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته»[١٧].

فقد بين أبو حامد بما فسر، وقرر بما فصل، الوجه الذي يصح التوافي عليه، في معرفة دقائق معاني الأسامي التي يبدو أنها مكررة في القرآن. فليجل الناظر الرأي في اسم اسم، وصفة صفة، وليتدبر معانيها، وليتأمل مغازيها، ثم ليقض ما هو قاض.

---

(١٤) **القرآن الكريم**، «سورة الفاتحة،» الآية ٣.

(١٥) المصدر نفسه، «سورة الفاتحة،» الآية ٤.

(١٦) الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، ص ٤٩ ـ ٥٣ و﴿**الرحمن الرحيم**﴾ الأولى جزء من البسملة، وهي آية على مذهب من يعدها آية، والآيات الثلاث (١، ٣ و٤) من سورة الفاتحة.

(١٧) الغزالي، المصدر نفسه، ص ٥٣.

## ٤ ـ أن أسماء ليست متناقضة عند من عرف معانيها، وخفايا أسرارها

مثاله: الأول والآخر والظاهر والباطن، في قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**﴾[١٨].

فالذي يجرد التفاته إلى ظاهر هذه الأسماء، يستبعد هذا ويقول: كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن، فالأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن؟

والذي ينظر بنور الله تعالى، ويتدبر باطن معانيها، يعلم أن الأمر على خلاف المظنون.

ولله در أبي حامد ما أنسب ما قال بهذا المقام؛ فإنه قال في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء** ما لفظه: «هو الأول بالإضافة إلى الموجودات؛ إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحد بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه؛ فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في تلك المشاهدة، أول في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت»[١٩].

فثبت بهذا أنها غير متناقضة، وأن من لا يطلع على كنهها، ولا يحيط بمعانيها، يوشك أن يزل في درك مقاصدها.

## ٥ ـ في بيان أن هذه الأسامي ليست مترادفة، وأنه يلحق كل واحد منها خواص ومعان لا تلحق الأخرى

يستبعد أبو حامد أن يكون اسمان لا يدلان إلا على معنى واحد، مهما كان الاسمان من جملة التسعة والتسعين، كالكبير والعظيم، والقادر والمقتدر، والخالق والبارئ. وذلك لأن الاسم لا يراد لحروفه بل لمعانيه، والأسامي المترادفة لا تختلف إلا حروفها[٢٠].

---

١٨) **القرآن الكريم**، «سورة الحديد،» الآية ٣.

١٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٣٥.

٢٠) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٢١.

قال أبو حامد يبين أن هذه الأسامي ليست مترادفة، وأنه لا بد أن تختلف مفهوماتها، قال: «وإنما فضيلة هذه الأسامي لما تحتها من المعاني. فإذا خلا عن المعنى لم يبق إلا الألفاظ. والمعنى إذا دل عليه بألف اسم لم يكن له فضل على المعنى الذي يدل عليه باسم واحد.

فبعيد أن يكمل هذا العدد المحصور بتكرير الألفاظ على معنى واحد، بل الأشبه أن يكون تحت كل لفظ خصوصي معنى»[21].

مثاله: الغني مع الملك، والعليم مع الخبير؛ فإنها أسماء متقاربة. لكن لأبي حامد في هذا مسلكاً يخرجها عن أن تكون مترادفة، وهو «أن نتكلف إظهار مزية لأحد اللفظين على الآخر ببيان اشتماله على دلالة لا يدل عليها الآخر»[22].

وعند هذا يقال: إن الغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء، والملك أيضاً لا يحتاج إلى شيء، ولكنه يحتاج إليه كل شيء. فيكون الملك مفيداً معنى الغني وزيادة. وكذلك العليم والخبير؛ فإن العليم هو الذي يدل على العلم فقط. والخبير يدل على علمه بالأمور الباطنة[23].

فاتضح بهذا المنهج أنها ليست مترادفة، وأن حسن الأسامي لما تنطوي عليه من المعاني.

وقد أشار العارف الصاوي إلى هذا المعنى في حاشية الجلالين في آخر تفسير «سورة الإسراء» عند قوله تعالى: ﴿**فله الأسماء الحسنى**﴾[24]، قال: «وحسن أسمائه تعالى لدلالته على معان شريفة، هي أحسن المعاني؛ لأن معناها ذات الله تعالى وصفاته»[25].

## ٧ ـ في بيان أن لله تسعة وتسعين اسماً

«تتضمن هذه المسألة الكلام على حديث رسول الله (ﷺ): «إن لله تسعة

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ١١٠.

(٢٥) يوسف بن اسماعيل النبهاني، **الاستغاثة الكبرى بأسماء الله الحسنى** (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٥٩٧ د، ورقة ب: ٢٨٧).

تسعين اسماً: مائة إلا واحداً. . إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها دخل الجنة»[٢٦].

أورد أبو حامد هذا الحديث بهذا اللفظ في بداية شرحه لمعاني أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، وبيان أسرارها على التفصيل. وذلك في الفن الثاني من كتابه **المقصد الأسنى**، والذي سماه: «المقاصد والغايات»[٢٧].

ولا غرض لي من الخوض في هذه المسألة إلا أن أبين أن المقصود من قوله عليه أفضل الصلاة والسلام «من أحصاها»؛ هو معرفة أسرارها ومعانيها، لأن مجرد الإحصاء قليل الغناء.

وأبو حامد لم يصرح بهذا تصريحاً، ولكني أستصحب كلامه الوارد في الفصل الرابع من السوابق والمقدمات من كتاب **المقصد الأسنى**[٢٨]، حيث صرح بأن من لم يكن له حظ من هذه الألفاظ سوى معرفة أسمائها فهو بخس الحظ، نازل الدرجة، فيشبه أن يكون الذي يحصي هذه الأسماء يعدها عداً، دون معرفة أسرارها، نازل الدرجة أيضاً.

وقد يوجد في كلام بعض العلماء ما يشير إلى وجه المقصود.

من ذلك ما أورده العلامة النبهاني صاحب كتاب **الاستغاثة الكبرى بأسماء الله الحسنى**؛ فإنه قال بعد كلام: «وقيل معناه؛ من عرف معانيها وآمن بها. وقيل معناه: من أحصاها بحسن الرعاية لها وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها»[٢٩].

وقد حكى أيضاً عن العارف الصاوي قوله: «والحفظ والإحصاء عند أهل الظاهر معرفة ألفاظها ومعانيها، وعند أهل الله هو الاتصاف بها والظهور بمعانيها، والعثور على مدارج نتائجها»[٣٠].

نخرج من هذا البيان أن يكون المقصود «بأحصاها» معرفة عددها، أو

---

(٢٦) الحديث أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، «كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»، باب في أسماء الله الحسنى، وفضل من أحصاها»، الحديث ٢٦٧٧، ج ١٧، ص ٦.

(٢٧) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٣٩.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٢٩) النبهاني، **الاستغاثة الكبرى بأسماء الله الحسنى**، ورقة ب: ٢٨٧.

(٣٠) المصدر نفسه، ورقة ب: ٢٨٧.

الوقوف على مبانيها، بل المقصود الغوص والتحقيق والتعمق في معانيها إلى أقصى الغايات، والتخلق بأخلاقها التي هي الأخلاق الإلهية.

### فوائد هذا المبحث

١ ـ الأسماء التسعة والتسعون تنطوي على معان مخصوصة، فالمعاني والأسرار التي يستنبطها المجتهد منها يجب أن تكون موافقة لقصد الشارع الحكيم. وذلك أمر عسير المدرك، صعب المنال، عزيز المرام، وإليه أشار أبو حامد بقوله: «وتحقيق معنى الأسماء والصفات على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر»[٣١].

٢ ـ كلما كانت الإحاطة بمعاني أسماء الله وصفاته أتم، والتخلق بأخلاقها أكمل، كانت مسافة العبد أقرب لا محالة من الذي له الكمال المطلق، وأعني قرباً بالرتبة والدرجة لا بالمكان والمسافة.

وفي هذا تتفاوت مراتب الخلق تفاوتاً لا ينحصر.

ولأبي حامد في هذه المسألة قول بليغ جداً وهو: «فليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض، وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على بدائع المملكة، وغرائب الصنعة، ممعناً في التفصيل، ومستقصياً دقائق الحكمة، ومستوفياً لطائف التدبير، ومتصفاً بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصاف لها، بل بينهما من البون البعيد ما لا يكاد يحصى»[٣٢].

٣ ـ لا أجد معنى لكلمة «المقربين» الواردة في كلام أبي حامد في المسألة الثانية سوى أنهم الصوفية. واعتضد هذا بمصطلحات يستعملها القوم، مثل المشاهدة والمكاشفة. وفي ذلك إشارة إلى أن الصوفية أكثر الخلق سعياً وراء التحلي بمعاني تلك الصفات والأسماء، وأقدرهم كشفاً لأسرارها، وأقواهم هتكاً لأستارها، وأحرصهم طلباً لمقاصدها، طلب دراية لا طلب رواية.

والبرهان على صحة هذا التقرير مذكور في «كتاب قواعد العقائد» من **الإحياء**؛ حيث صرح أبو حامد بأن العبد إذا «أراد أن يكون من سالكي طريق

---

(٣١) الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» ج ٤، ص ٣٢٣.

(٣٢) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٣٥.

لآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية، تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾[٣٣]. وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) حيث فضل به الخلق. وانكشاف ذلك السر، بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة، ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفي الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم؛ إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد، واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه»[٣٤].

وما قاله أبو حامد حق لا ريب فيه؛ فقد انكشف لي في أثناء الصلاة والذكر وتلاوة القرآن أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. بحيث تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك بالله تعالى وأسرار خلقه عزة، وفي أعطافك ارتياحاً وهزة، وترى لك في الفضل تقدماً وتبريزاً، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً.

والمشاهدة والتجربة تكفي في هذا بياناً، فناهيك بالعيان برهاناً[٣٥].

على أن صحة هذا الطريق في معرفة حقائق الأمور له شواهد من الكتاب العزيز لا ينكرها إلا معاند متعام.

٤ ـ تعبير أبي حامد عن تلك المعاني والمقاصد بالحظوظ تحته معنى مستمر، وهو جلبها لأفضل المصالح، ودرؤها لأسوء المفاسد.

وهذا يتفق تمام الاتفاق مع القاعدة المقررة في هذا الفن، وهي أن العقائد الشرعية موضوعة لمصالح العباد من بين أيديهم ومن خلفهم.

---

(٣٣) **القرآن الكريم،** «سورة العنكبوت،» الآية ٦٩.

(٣٤) المصدر نفسه، وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين،** ج ١، ص ١٣٣.

(٣٥) بخصوص هذا المقام كلام في غاية الحسن للشيخ محمد رشيد رضا. انظر: محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي،** ط ٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧١)، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

وأيضاً؛ ففي تعبير أبي حامد عن تلك المقاصد بالحظوظ دليل على أنهما مترادفان عنده.

على أن شيخي الدكتور أحمد الريسوني ذكر في مقالة له، ما يفيد أنهما ليسا كذلك عند أبي حامد[٣٦].

لكن قد صرح الإمام الغزالي في «كتاب النية والإخلاص والصدق» من **الإحياء** بما يشعر أن هذين اللفظين يصبان في واد واحد[٣٧].

٥ ـ إذا تقرر أنها تجلب السعادة الدنيوية والأخروية؛ فاعلم أن أقصى غايات السعادة التي تفضي إليها هي القرب من الله تعالى.

فإذا ما العبد نخل تلك الأسامي حتى أسفر وجه المعاني، ثم لم يكتف بذلك، بل جعل تلك المعاني رداءه، وأخلاقها إزاره، فهو الذي يقرب من الله تعالى قرباً لا بالمكان والمسافة، ولكن بالمعنى والحقيقة. ومن اقترب نظر: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة**﴾[٣٨].

فتبين أن الأسماء والصفات إنما تراد لسعادة القرب من رب العالمين. ولما كانت مرادة لأجلها، كان تضييعها جناية على ذلك المقصود. وكل جان كان مكتوياً بنارين، نار الحرمان لتلك السعادة، ونار الحجاب والإبعاد يوم القيامة، ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم**﴾[٣٩].

٦ ـ إذا كان المقصود هو التحلي بمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته، والتخلق بأخلاقها، والاتصاف بها اتصاف حال لا اتصاف مقال؛ فهل إذا اتصف العبد بها يكون كاتصاف الله تعالى بها؟

معاذ الله أن يكون هذا هو المقصود. ولذلك فإن أبا حامد الغزالي قد استعمل عبارة حذرة وهو يترجم لأحد فصول **المقصد الأسنى**؛ فإنه قال: «الفصل الرابع: في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله

---

(٣٦) أحمد الريسوني، «الإمام الغزالي ومقاصد الأسماء والصفات،» **الوطن**، ١٣/ ٤/ ٢٠٠١.

(٣٧) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب النية والإخلاص والصدق،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٥٠٢.

(٣٨) **القرآن الكريم**، «سورة القيامة،» الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(٣٩) المصدر نفسه، «سورة المطففين،» الآيتان ١٥ ـ ١٦.

تعالى، والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه»[٤٠].

وما ورد في شرح هذه العبارة من شواهد **الإحياء** وغيره لا يحصى، مثل قول أبي حامد في «كتاب آداب النكاح»: «وهيهات، فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذواتهم، وكما أن الخلق جوهر وعرض، وذات الله مقدس عنه، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض، فكذلك صفاته لا تناسب صفات الخلق»[٤١].

وقال في موضع آخر من **الإحياء**: «الأسامي إذا أطلقت على الله تعالى، وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً»[٤٢].

وهذا كلام جامع محيط بالغرض. وفي معناه قول أستاذي الدكتور أحمد الريسوني: «الاشتراك بين الرب والعبد في بعض الصفات، لا بد وأن يوضع في إطار الفرق بين الرب والعبد، فالرب رب والعبد عبد؛ أي في إطار ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾، فإذا قلنا مثلاً: إن الله تعالى متكلم، والإنسان متكلم، فإن كلام الإنسان نعرفه، بهيئته وبشكله ومضمونه، ونعرف مبتدأه ومنتهاه، ونعرف مقداره وآثاره. أما كلام الله تعالى، فلتقريبه إلى الأذهان قال سبحانه: ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**﴾»[٤٣].

فاتضح بهذا البيان أن الله تعالى ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ولا يشبهه شيء.

٧ ـ لا يخفى على المتأمل، ولا على من يزحزح قليلاً عن درجة العوام أن الأسماء والصفات منقسمة إلى نوعين:

فنوع منهما: يقتضيْ الرحمة واللطف.

والنوع الثاني: يقتضي الأخذ والعنف.

---

(٤٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: **روضة الطالبين وعمدة السالكين**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٦٣، و**المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٢٦.

(٤١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب النكاح،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٢، ص ٣٧.

(٤٢) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٣٢.

(٤٣) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآية ١٠٩، وأحمد الريسوني، «صفات الله وصفات العبد،» **الوطن**، ٦/٤/٢٠٠١.

فمن قصر لحاظه على النوع الأول كانت المحبة عليه أغلب، ومن كثر التفاته إلى النوع الثاني كان الخوف عليه أغلب[٤٤].

وإلى النوعين جميعاً الإشارة بقول أبي حامد في «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا» من **الإحياء**: «وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب؛ وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو؛ كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء، وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان»[٤٥].

وفي هذا الكلام تظهر ثمرة النوع الأول وفائدته، وخطورة الثاني وعاقبته.

وقد نجد في كلام بعض المشايخ ما يشير إلى انقسامها إلى تينك النوعين.

من ذلك ما قاله الإمام الشعراني في المبحث الثالث عشر من اليواقيت والجواهر نقلاً عن الشيخ الأكبر.. قال في آخر المبحث: «ومن حقق معرفة الأسماء الإلهية، وجد أسماء الأخذ والانتقام قليلة، وأسماء الرحمة كثيرة»[٤٦].

على أنه لا يمكن القطع بأن أسماء الأخذ والانتقام خالية من الخير والمصلحة. وإيضاحه بمثال: قال الله تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾[٤٧].

فالمذل من أسماء الله الحسنى الدالة على الأخذ والانتقام كما في هذه الآية، لكن في ضمنه خيراً كثيراً. وبيانه: أن الله تعالى إذا نزع الملك من ظالم، وضرب عليه الذلة والمسكنة، كان ذلك خيراً، ولم يعتبر شراً بحال. ولذلك ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿**بيدك الخير**﴾، ولم يردفها بقوله مثلاً: وبيدك الشر، إشارة إلى أن الخير بيديه، وأن الشر ليس إليه. والله أعلم وأحكم.

## ثانياً: البيان التفصيلي

وهو البيان الذي يتضمن ذكر معاني أسماء الله الحسنى على التفصيل،

---

(٤٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الخوف والرجاء،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٢١٧.

(٤٥) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٤٢.

(٤٦) النبهاني، **الاستغاثة الكبرى بأسماء الله الحسنى**، ورقة ب: ٢٨٩.

(٤٧) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٢٦.

وأقتصر على أسماء الرحمة والعطف والرفق. وهذا أيضاً يصعب الإحاطة بكله، ويتعسر الذكر لجميعه، فلأعين نموذجاً منها يكون ما يذكره أبو حامد في بعضها ويقرره جارياً أيضاً في ما أهمله منها، وبالله التوفيق.

**الله جل جلاله**: قال أبو حامد: «هو اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي»[٤٨].

وهذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لوجهين[٤٩]:

**أحدهما**: أنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منه شيء، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني.

**الثاني**: أنه أخص الأسماء؛ إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً، وسائر الأسماء قد تسمى بها غيره.

حظ العبد من هذا الاسم هو التألّه، ويعني به أبو حامد: أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه[٥٠].

وفي هذا الكلام معنى عاضد لما ذكره أبو حامد في الفصل الثاني (من هذا الكتاب)، عند كلامه على مراتب التوحيد، حيث صرح بأن التوحيد المقصود هو أن يذر العبد بالكلية غير الله تعالى والتجرد له.

**الرحمن الرحيم**: هما اسمان مشتقان من الرحمة:

ورحمة الله تعالى لعباده تامة وعامة؛ «أما تمامها: فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها، وأما عمومها: فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعم الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجية عنها»[٥١].

فهذا الكلام من أبي حامد صريح في لطف الله تعالى بالعباد وعنايته بهم، ويدل على ذلك أنه أعد لهم كل ما هو من ضروراتهم، وما هم

---

(٤٨) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٤٠.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٤١.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٤١.

محتاجون إليه، وما هو زينة لهم، وذلك كمال في معنى الرحمة.

وهذان الاسمان؛ وإن كانا مشتقين من الرحمة، فليسا مترادفين، بل يوجد تحت كل اسم منهما خصوصي معنى.

وقد سبق أن ذكرت في القسم الأول من هذا الفصل قانوناً يمنع الترادف في الأسماء المحصاة، فهذان الاسمان يجريان في ما جرت فيه سائر الأسامي.

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى ويؤكده: «الرحمن أخص من الرحيم؛ ولذلك لا يسمى به غير الله، والرحيم قد يطلق على غيره، فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله الجاري مجرى العلم، وإن كان هذا مشتقاً من الرحمة قطعاً. ولذلك جمع الله بينهما فقال: ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾[٥٢]. فلزم من هذا الوجه، ومن حيث منعنا الترادف في الأسماء المحصاة، أن يفرق بين معنى الاسمين. فبالحري أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة هي أبعد من مقدورات العباد، وهي ما يتعلق بالسعادة الأخروية. فالرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد **أولاً**، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة **ثانياً**، والإسعاد في الآخرة **ثالثاً**، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم **رابعاً**»[٥٣].

فقد خرج من هذا أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى عباده نظراً إلهياً. وقد رأينا هذا في الفصل الثاني (من هذا الكتاب)، فلا حاجة إلى الإعادة.

أما العبد فينبغي أن يكون له من كلا الاسمين حظ ونصيب.

أما حظه من اسم الرحمن فهو أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء[٥٤].

وأما حظه من اسم الرحيم فهو أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره[٥٥].

---

(٥٢) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ١١٠.

(٥٣) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٤٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٤٢.

**القدوس**: معناه «المنزه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير»[٥٦].

من رقي علمه عن درجة المحسوسات والمتخيلات، وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات، ولم يدرك إلا الله، فقد نزل بحبوبة حظيرة القدس[٥٧].

**السلام**: معناه «الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر»[٥٨].

ينبغي أن يتخلق العبد بهذا الوصف؛ فيسلم هو من نفسه **أولاً**، بأن يسلم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبه، وتسلم عن الآثام والمحظورات جوارحه، ويسلم المسلمون من لسانه ويده **ثانياً**. فذلك هو السلام من العباد[٥٩].

**المؤمن**: معناه «الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، وسده طرق المخاوف»[٦٠]. وليس ذلك إلا الله تعالى.

وفي هذه العبارة معنى رامز إلى أن الله تعالى هو المتكفل برعاية مصالح عبده، وحفظها من جانبي الوجود والعدم.

وهذا كلام مجمل يفتقر إلى مزيد توضيح؛ وهو ما عبر عنه أبو حامد بقوله: «والعبد ضعيف في أصل فطرته، وهو عرضة الأمراض والجوع والعطش من باطنه، وعرضة الآفات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره. ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلا الذي أعد الأدوية دافعة لأمراضه، والأطعمة مزيلة لجوعه، والأشربة مميطة لعطشه، والأعضاء دافعة عن بدنه، والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته. ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد. والله تعالى هاديه إليها ومرغبه فيها حيث قال: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني فقد أمن عذابي»[٦١].

كل عبد أمن الخلق كلهم جانبه، واعتضد كل خائف به في دفع الهلاك

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٤٧.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٤٧.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٦١) المصدر نفسه، ص ٤٩.

عن نفسه في دينه ودنياه، فقد تخلق بهذا الخلق، وأخذ منه نصيباً[٦٢].

ولما كان الأنبياء (عليهم السلام) أسباباً لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة، كانوا أحق العباد بهذا الاسم[٦٣].

**العزيز**: معناه «الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه»[٦٤].

من احتاج إليه عباد الله تعالى في أهم أمورهم، وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية، فذلك من العبيد جدير بأن يسمى عزيزاً. وهذه حرفة الأنبياء ومن يقرب منهم من العلماء[٦٥].

وهذا عاضد لما ذكرته سابقاً من أن المقصد الأقصى من بعثة الأنبياء؛ سياق العباد إلى سعادة المعاد.

**الغفار**: معناه «الذي أظهر الجميل وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح التي سترها بإرسال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة»[٦٦].

هذا الكلام من أبي حامد دال على عظيم إحسان الله تعالى إلى العباد، وكبير لطفه بهم. وقد تقدم تقرير هذا الأصل غير مرة.

من ستر من غيره ما يجب أن يستر منه، ولم يفش من خلق الله تعالى إلا أحسن ما فيه، فقد تخلق بهذا الخلق، وأخذ منه نصيباً[٦٧].

**الوهاب**: معناه «الذي يعطي كل محتاج ما يحتاج إليه لا لعوض ولا لغرض عاجل ولا آجل»[٦٨]. وليس هو إلا الله تعالى.

فقد اشتمل هذا القول على أمرين:

**أحدهما**: أن فيه دليلاً على إحسان الله تعالى إلى العباد. **والثاني**: أنه سبحانه منزه عن الأعواض والأغراض.

---

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ٥١.
(٦٦) المصدر نفسه، ص ٥٦.
(٦٧) المصدر نفسه، ص ٥٦.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٥٧.

من بذل جميع ما يملكه حتى الروح لوجه الله تعالى، لا للوصول إلى نعيم الجنة، أو الحذر من عذاب النار، أو لحظ عاجل أو آجل مما يعد من الحظوظ البشرية، كان نصيبه من هذا المعنى أوفر حظاً وأتمه[٦٩].

**الرزاق**: معناه ظاهر، وكماله أنه الذي خلق الأرزاق والمرتزقة وأوصلها إليهم، وخلق لهم أسباب التمتع بها[٧٠].

ورزق الله تعالى لعباده على نوعين[٧١]:

**أحدهما**: ظاهر، وهو الأقوات والأطعمة، وذلك للظواهر وهي الأبدان. **والثاني**: باطن، وهي المعارف والمكاشفات، وذلك للقلوب والأسرار.

ينبغي أن يتعطش العبد إلى أن يصير له من هذا الوصف أمران[٧٢]:

**أحدهما**: أن يعرف حقيقة هذا الوصف، وأنه لا يستحقه إلا الله تعالى، فلا ينتظر الرزق إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه. **والثاني**: أن يرزقه علماً هادياً، ولساناً مرشداً معلماً، ويداً منفقة متصدقة، ويكون سبباً لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله وأعماله.

**اللطيف**: إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، وهو الله تعالى[٧٣].

من كان رفيقاً بعباد الله تعالى، ومتلطفاً بهم في الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة، من غير ازدراء وعنف، ومن غير خصام وتعصب، فهو ذو حظ من هذا الوصف[٧٤].

**الودود**: معناه «الذي يحب الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم، ويثني عليهم»[٧٥].

---

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(٧٠) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(٧١) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(٧٢) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(٧٣) المصدر نفسه، ص ٧٤.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(٧٥) المصدر نفسه، ص ٩٣.

الودود من العباد من يريد لخلق الله كل ما يريد لنفسه، وأعلى من ذلك من يؤثرهم على نفسه[٧٦].

**الحميد**: معناه «المحمود المثنى عليه، والله تعالى هو الحميد بحمده لنفسه أزلاً، وبحمد عباده له أبداً، ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلوم والكمال، منسوباً إلى ذكر الذاكرين له؛ فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال»[٧٧].

من حمدت عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله كلها من غير مشوبة؛ فذلك هو الحميد من العباد، وهو محمد (ﷺ)، ومن يقرب منه من الأنبياء ومن عداهم من الأولياء والعلماء. وكل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله[٧٨].

وأكتفي بهذا القدر؛ فإن الاستقصاء طمع في غير مطمع.

والذي ذكرته من معاني هذه الأسماء ينبه إلى غيرها، فليتأمل المتأمل ما دللت عليه يجده كذلك.

وإذا رددنا آخر الكلام على أوله، وعطفنا عجزه على صدره، استبان أن جماع ما تنطوي عليه هذه الكلمات ينحصر في أربعة أمور:

**أحدها**: قد بان على القطع أن في فهم أسماء الله الحسنى وصفاته العليا متسعاً لأرباب الفهم؛ فمن زعم أن لا معنى لها إلا ما ترجمه ظاهرها، فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الكافة إلى درجته التي هي حده ومحطه.

بل أقول: إن المعرض عن المعاني والأسرار مكتفياً بظواهر الأسماء وصورها الخيالية، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً الأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.

**الثاني**: إذا اتضح أن معرفة المعاني والأسرار أمر مقصود، فقد اتضح أيضاً؛ أن الاتصاف بمعاني الأسامي أمر مطلوب للشرع.

---

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

فمعرفة معاني الصفات والأسماء مع التخلق بأخلاقها، والاتصاف بها، نور على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور.

**الثالث**: قد تبين في الفصل السابق أن مراتب الناس بالإضافة إلى معرفة ذاته تعالى متفاوتة، فكذلك هذا المبحث، وقد وردت إشارات إلى هذا الأمر في تضاعيف الكلام، وعنه أيضاً العبارة بقول حجة الإسلام: «وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها، وربما لم يطلعوا على حقيقتها، ولا تخيلوا لها معنى فاسداً، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقربون. وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿**فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنّت نعيم**﴾»[٧٩].

**الرابع**: غاية ما يثمره معرفة أسماء الله وصفاته؛ حبه تعالى، وإلى هذا أشار أبو حامد بقوله: «فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة، وأسماءه الحسنى، لم يمتنعوا أن أحبوه؛ إذ استحق عندهم المحبة بذلك؛ لأنه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم»[٨٠].

فقد بينت بما ذكرت طريق تفهيم مذهب أبي حامد في الأسماء والصفات، واقتصرت على الأصول، وتركت الفضول المستغنى عنه، وبالله التوفيق.

---

(٧٩) القرآن الكريم، «سورة الواقعة،» الآيتان ٨٨ ـ ٨٩، والغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٢٢.

(٨٠) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٦.

# الفصل الخامس

## في أفعال الله تعالى

قد بان في الفصلين السابقين أن مقاصد القرآن الكلية عند أبي حامد لا تعدو ثلاثة مقاصد؛ وهي معرفة ذات الله تعالى، ومعرفة صفاته، ومعرفة أفعاله. وقد مضى القول مبيناً في المقصدين **الأول والثاني**، وبقي المقصد **الثالث** وهو أفعاله تعالى، فهذا موضعه، فلنذكر منه القدر الذي يتضح به الغرض، دون تفصيله الذي لا يحتمله هذا المبحث.

ولكن لا بد قبل ذلك من ذكر مقدمة نافعة في هذا المبحث.

فقد وقفنا في الفصلين السابقين على مذهب أبي حامد في ذات الله تعالى وصفاته، واستبان أنهما في غاية الغموض والعسر، وأن الكلام فيهما خارج عن حد فهم أكثر الخلق، من أجل ذلك؛ فإن أبا حامد الغزالي يدعو إلى ضرورة العدول عن النظر في المعرفتين إلى النظر في أفعاله عز وجل؛ لأن هذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى ويؤكده: «ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً. . . اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني، وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره، وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه؛ فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته. . .»[1].

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: «كتاب التفكر،» ج ٥، ص ١٧، و«كتاب المحبة =

فقد تبين من هذا الطريق التي دعا من قبلها أبو حامد الناس إلى معرفة الله عز وجل.

وإذا اتضحت هذه المقدمة، فلننتقل إلى المقاصد والغايات.

## أولاً: في أن أفعال الله تعالى هل وضعت لعلل حكمية ومصلحية أم لا؟

### ١ ـ في تحقيق مذهب الإمام الغزالي

اعلم أن الذي عليه أبو حامد، تصريحاً وتعريضاً، أن أفعال الله تعالى معللة بالحكمة ورعاية المصلحة، دل عليه شاهد قوله في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء**: «إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة؛ إما على جميع عباده وإما على بعضهم»[٢].

والحكم الإلهية التي يتضمنها كل فعل على حدة لا حصر لها، وإلى هذا المعنى الإشارة بقول أبي حامد: «فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة؛ من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف...»[٣].

ويطلق الإمام الغزالي القول: بأن أفعاله تعالى لو لم تكن لحكمة مقصودة، وغاية مطلوبة، لكان خلقها عبثاً وباطلاً، وعنه العبارة بقوله: «وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة، وحكم كثيرة... ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، كما يليق بجلاله وكرمه ولطفه»[٤].

وقد أثبت الغزالي ذلك استدلالاً بما ورد من نحو قوله تعالى: ﴿**ربنا ما**

---

= والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤١٩، في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩).

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٠.

(٤) الغزالي: «كتاب التفكر،» ج ٥، ص ٢٥، و«كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٥٣.

خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق﴾[٦].

فإذن؛ مخلوقات الله عز وجل غير خالية عن الحكم والفوائد، ولهذا ـ كما يذكر ذلك أبو حامد في **الإحياء** ـ نظر رسول الله (ﷺ) إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»[٧]. قال أبو حامد: ومعناها أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب، وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً. فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب، يطلب معرفتها المحبوب لله تعالى»[٨].

وقد طلبها أبو حامد رحمه الله، وبين أسرارها أعظم ما يكون البيان، وكشف عن حكمها بأظهر برهان، في الكثير من تصانيفه، ولا سيما «كتاب الصبر والشكر» و«كتاب التفكر» وهما من جملة كتب **الإحياء**، وكتاب **جواهر القرآن ودرره**، وكتاب **الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**.

ولا غنى لهذا المبحث عن ضرب الأمثلة.

قال أبو حامد في حكمة خلق الإنسان ما نصه: «اعلم وفقك الله تعالى، أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار؛ خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض؛ فخلق سبحانه الذكر والأنثى؛ وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر، وعدموا الحيلة في اجتناب الشهوة. فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن، وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة،

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٩١.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الدخان،» الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.

(٧) الحديث أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس. انظر: أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في ذيل: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ١٥٤.

(٨) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٥٤.

فانتقلت بسبب الأفلاج من باطن إلى باطن. فكانت مع انتقالها باقية على أصلها؛ لأنها ماء مهين، أدنى شيء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها، فهي ماء يختلط جميعه مستوية أجزاؤه، لا تفاوت فيها بحال، فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، ثم كساها من اللحم، وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق، وخلق الأعضاء وركبها، فدور سبحانه الرأس، وشق فيها السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ. فجعل العين للبصر. ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء؛ وهو أمر يعجز عن شرح سره، وركبها من سبع طبقات، لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار، وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها، وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقت، ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه، جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصاً يضر بها...»[٩].

فهذا المثال ناطق بلسان حاله، مفصح عن جلال البارئ جل وعلا، معرب عن كمال قدرته وعجائب حكمته.

فالحاصل أن أفعاله تعالى معللة بالأغراض، وأن الحكم والفوائد والمنافع التي تنطوي عليها غير محصورة. فلا يقع الناظر منها على مقصود فقدر أنه أقصى مقاصدها إلا قصر، ولا يضفر بحكمة فظن أنها زبدة حكمها إلا وقد أخل. ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار مخلوقاته سبحانه لانقضى العمر قبل استيفاء بعض ذلك فضلاً عن كله. ومن هاهنا جاء الإمام الغزالي وقال: «وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وعبادته إلى الأجل المعلوم، وهي مما لا يدخل تحت حد، ولا يحصرها عد، ولا يعلم منتهى حقائقها وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم، الذي وسعت رحمته كل شيء وأحصى كل شيء عدداً»[١٠].

ولينظر واحد منا في ما قاله أبو حامد رحمه الله في حكم الله تعالى

---

(٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤١.

وأسراره في خلقه، في كتبه التي ذكرتها؛ فإنه لا يجد في جميعها إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على أسرار ومحاسن تتوالى، وبدائع وحكم تترى.

## ٢ ـ في ذكر مسائل نافعة في هذا المبحث

هذا المبحث كالاستكمال للمبحث الأول وكالكشف له. ويشتمل على خمس مسائل:

أ ـ إذا جهل العبد حكم الله تعالى في أفعاله، وذهل عن أسراره في خلقه؛ فبأي شيء امتاز حتى قدم على سائر المخلوقات وصار أفضلها؟

فلا بد من البحث عن علل الأفعال والتفتيش عن حكمها ومقاصدها. وهو معني بقول أبي حامد في «كتاب التفكر» من **الإحياء**: «فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت، ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتعرفها؛ فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض**﴾[11]، لا بل كل ما يدرك بحسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب والشهادة، وجبار الملك والملكوت، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء»[12].

فالعبد قدم على سائر المخلوقات لهذه الخاصية، وهي قدرته على درك بواطن الأمور، ومعرفة سر قوله تعالى: ﴿**فارجع البصر هل ترى من فطور**﴾[13].

ب ـ ما يدركه العلماء من الحكم والأسرار في أفعاله تعالى ليس منتهى الإدراك فيها، بل لا يحيط بكنه حقيقتها إلا الله تعالى.

وقد أشار إلى هذا أبو حامد في «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا» من **الإحياء**. فبعد سوقه للمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر

(١١) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٧٥.
(١٢) الغزالي، «كتاب التفكر،» ج ٥، ص ٣١.
(١٣) **القرآن الكريم**، «سورة الملك،» الآية ٣.

الحيوانات قال: «وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى»[١٤].

ج ـ قد سبق أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله. فلعله يخطر ببال واحد أنه إذا اطلع على الحكم المودعة تحت الأفعال، وعرف أسرارها، فقد عرف الله تعالى، وهيهات؛ فإنه لا يعرف كنه الله تعالى إلا الله.

فبعدما صرح أبو حامد بأن لله تعالى في خلق الأنعام حكماً، وأنه تعالى ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها، قال ما نصه ـ وهو المتعلق بالمسألة: «فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر، ومن غير تأمل وتدبر، ومن غير استعانة لوزير أو مشير، فهو العليم الخبير، الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده. فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته، والاعتراف بربوبيته، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا؛ الاعتراف بالعجز عن معرفته»[١٥].

د ـ الحكم المودعة تحت أفعال الله تعالى منقسمة عند أبي حامد إلى جلية وخفية.

«أما الجلية؛ فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى دقيقة، وكذلك معرفة الغيم ونزول الأمطار، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه؛ إذ قال تعالى: ﴿**أنّا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنباً وقضبا**﴾[١٦].

---

(١٤) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤٢١. وقوله: «لم يطلعوا على أمور جلية...» عبارة غير تامة، ولعل الصواب «ولم يطلعوا إلا على أمور جلية...» بإضافة حرف الاستثناء.

(١٥) الغزالي، «كتاب التفكر،» ج ٥، ص ٢٦.

(١٦) **القرآن الكريم**، «سورة عبس،» الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية، لا يطلع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ أعين النظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب**﴾(١٧)... وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها؛ كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرجل للمشي لا للشم. فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات؛ فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى: ﴿**قل الرّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾»(١٨).

هـ ـ في أن بعض الموجودات مما يمكن درك وجه الحكمة فيها، وبعضها الفهم قاصر عن درك السر فيها. فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه.

فمثال المخلوقات التي يصرح أبو حامد بقصور الفهم عن درك السر فيها: الروح. قال ـ رحمه الله ـ بعد كلام: «وأما الروح التي هي الأصل، وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن؛ فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿**قل الروح من أمر ربي**﴾، والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق. وأما الأوهام والخيالات، فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات...» إلى أن قال: «ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف، وبها ندرك مصالح الدنيا، عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر، لم يأذن الله تعالى لرسوله (ﷺ) أن يتحدث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿**من أمر ربي**﴾، وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي**﴾»(١٩).

---

(١٧) المصدر نفسه، «سورة الصافات،» الآية ٦.

(١٨) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ٨٥، والغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة الفجر،» الآيات ٢٧ ـ ٣٠، والغزالي، «كتاب التفكر،» ج ٤، ص ١٥١.

والقول الشامل في هذا المبحث أنه يكمن تحت أفعال الله تعالى ومخلوقاته، حكم وأسرار أعلى من أن ينالها أفهام العارفين، وأرفع من أن يمتد إليها أبصار الناظرين، بل لا يلمح ذلك صغير ولا كبير، إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه، فانقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير.

## ٣ ـ في ذكر أدلة النافين للحكمة والتعليل والجواب عنها

الذين منعوا تعليل أفعال الله تعالى بالغرض والمصلحة متحكمون فمطالبون بالدليل؛ ولهم شبه.

منها، قولهم: «لا يجوز أن تعلل أفعال الله تعالى؛ لأن من فعل فعلاً لغرض كان حصوله بالنسبة إليه أولى، سواء كان ذلك الغرض يعود إليه أم إلى الغير، وإذا كان كذلك؛ يكون ناقصاً في نفسه مستكملاً في غيره، ويتعالى الله سبحانه عن ذلك»[٢٠].

فهذا أهم ما انقدح لمنكري التعليل التمسك به، وهو غلط فاحش، وقد كفى المؤونة في الرد عليهم تعب من قبلنا، منهم الشيخ الطاهر بن عاشور؛ فإنه قال في **التحرير والتنوير** تصنيفه: «والحاصل أن الدليل الذي استدلوا به يشتمل على مقدمتين سفسطائيتين، **أولاهما** قولهم: إنه لو كان الفعل لغرض للزم أن يكون الفاعل مستكملاً به، وهذا سفسطة شبه فيها الغرض النافع للفاعل بالغرض بمعنى الداعي إلى الفعل، والراجع إلى ما يناسبه من الكمال لا توقف كماله عليه. **والثانية** قولهم: إذا كان الفعل لغرض كان الغرض سبباً يقتضي عجز الفاعل، وهذا شبه فيه السبب الذي هو بمعنى الباعث بالسبب الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، وكلاهما يطلق عليه سبب.

ومن العجائب أنهم يسلمون أن أفعال الله تعالى لا تخلو عن الثمرة والحكمة، ويمنعون أن تكون الحكم عللاً وأغراضاً، مع أن ثمرة فعل الفاعل العالم بكل شيء لا تخلو من أن تكون غرضاً؛ لأنها تكون داعياً للفعل ضرورة

---

(٢٠) تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠)، ج ٣، ص ٦٢، وفخر الدين محمد بن عمر الرازي، **المعالم في أصول الفقه**، تحقيق عادل أحمد عبد الواحد وعلي محمد عوض (بيروت: دار المعرفة؛ دار المناهل للطباعة، [د. ت.])، ص ١٦٤.

تحقق علم الفاعل وإرادته، ولم أدر أي حرج نظروا إليه حين منعوا تعليل أفعال الله تعالى وأغراضها»[٢١].

وقد تكلفت من جهتي أيضاً إظهار غلط هذه المقالة، وبيان وهيها في بحثي الذي سميته: «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»[٢٢].

ولي في هذا المبحث كلام آخر؛ وهو أن الاستشهاد على رد كلام نفاة التعليل، وتقرير علية الأفعال، وإثبات كونها مخلوقة لحكمة ومصلحة ينبغي أن يكون بأمور أخر، بعضها مقتبس من تواليف أبي حامد.

**أحدها**: أن النظر في أفعال الله تعالى هذا النظر، أعني البحث عن حكمها، واستنباط عللها وأسرارها، واستكشاف ما تتضمنه من الغايات الحميدة، طاعة لقوله تعالى: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**﴾[٢٣]. فمن لا يتفكر فيها ولا يتدبر فما أطاع الله تعالى.

**ثانيها**: أن الله تعالى ذم من ظن أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة. وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار**﴾[٢٤].

**ثالثها**: وهو الحقيقة: اعلم أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله، وهذا ما نبه عليه أبو حامد في **الإحياء** كتابه: «يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى؛ كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم»[٢٥].

وإذا تقرر أن الأفعال لا تراد إلا لمعرفة الله تعالى؛ فبين أن من منع تعليل أفعاله وأغراضها، فقد عطلها من مقصدها، وأخلاها عن سرها.

---

(٢١) محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢٢) محمد عبدو، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط)، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢٣) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٩١.

(٢٤) المصدر نفسه، «سورة ص،» الآية ٢٧.

(٢٥) الغزالي، «كتاب التفكر،» ج ٥، ص ٣٤.

**رابعها:** ما قيل عن معرفة الله تعالى بالإضافة إلى الأفعال، يقال أيضاً عن الأسامي بالإضافة إليها، وبيانه: أن «الأسامي مشتقة من الأفعال، لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال»[٢٦].

ولا بد من إيراد أمثلة يتبين بها المقصود وتتضح بها أعلام الحق.

من ذلك ما ذكره أبو حامد عند شرحه لاسم «العدل» من كتاب **المقصد الأسنى** حيث قال: «من أراد أن يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط علماً بأفعال الله تعالى من أعلى ملكوت السموات إلى منتهى الثرى. حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع البصر إليه خاسئاً وهو حسير، وقد بهره جمال حضرة الربوبية، وحيره اعتدالها وانتظامها، فعند ذلك يعشق بفهمه شيئاً من معاني عدل الله تعالى»[٢٧].

ومن أسمائه تعالى «اللطيف»؛ ولن يعرف حقيقة هذا الاسم من لم يعرف لطف الله تعالى في أفعاله، ولم يحط بها خبراً، وعنه العبارة بقول أبي حامد: «أما رفقه في الأفعال ولطفه فيها، فلا يدخل أيضاً تحت الحصر؛ إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله، وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم «اللطيف»»[٢٨].

وهكذا القول في كل أسماء الله الحسنى؛ «فهو من حيث دبر الأمور حكم، ومن حيث أوجدها جواد، ومن حيث رتبها مصور، ومن حيث وضع كل شيء موضعه عدل، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامي من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال»[٢٩].

وحقيقة هذه الأفعال أن الله تعالى لم يخلقها عبثاً، ولا لغير معنى. ومصلحة وحكمة هي المقصود بالخلق.

فتحصل من هذا؛ أن القول بأن الله تعالى لم يفعل لحكمة وغاية مقصودة إبطال لمعاني الأسامي، وتعطيل لحقائقها.

---

(٢٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ٧٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٧٥.

**خامسها**: قد تقرر في الفصل الذي قبل هذا أن حظ العبد من الأسامي هو التحلي بمعانيها، والتخلق بأخلاقها.

وحيث إن الأسماء تقتضي معرفة الحكم في جميع أنواع الموجودات، فمن عرف هذه الحكم فهو الذي يقال: إنه اتصف بصفات الله بالقدر الذي يجوز في حقه، وهو الذي يثبت الحكمة في أفعال الله تعالى ويقررها.

مثاله: المصور؛ فحظ العبد من هذا الاسم، على ما صرح به أبو حامد، هو «أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله، على هيئاته وترتيبه، حتى يحيط بهيئة العالم كله كأنه ينظر إليها، ثم ينظر من الكل إلى التفصيل، فيشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمانية، فيعلم أنواعها وعددها وتركيبها والحكمة في خلقها وترتيبها...»[٣٠].

فهذا حظ العبد من اسم المصور، أما من لم يكن له حظ منه إلا بأن يعرف لفظه، فقد فاته على التحقيق كل شيء.

**سادسها**: قد عزا القول بمنع تعليل أفعال الله تعالى بالحكمة والمصلحة إلى الأشاعرة الفخر الرازي في **التفسير**، على ما ذكره صاحب **التحرير والتنوير**[٣١].

وقد انكشف بما حكيته عن أبي حامد؛ أنه رحمه الله مع كونه أشعرياً، إلا أنه لم يكن للأشاعرة عضداً، ولا لخصومهم خصيماً، بل كان ينشد الحق، ويتحرى مقصد الشرع. وكان يكثر أن يقول: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله»[٣٢].

وصرح أيضاً في كتابه **معراج السالكين** بمثل هذا فقال: «اعلم يا أخي أنك متى كنت ذاهباً إلى تعرف الحق بالرجال، من غير أن تتكل على بصيرتك، فقد ضل سعيك؛ فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس أو كالسراج يعطي الضوء، ثم انظر ببصرك؛ فإن كنت أعمى فما يغني عنك

---

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٣١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٣٨٠.

(٣٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال** ([د. م.]: دار العلم للجميع، [د. ت.])، ص ٤٥.

السراج والشمس، فمن عول على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً»[٣٣].

والحق الذي يتحراه أبو حامد هو ما وافق مقاصد الشرع، وإلى هذا يرشد كلامه في كتابه **فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام**؛ فحينما سأله جماعة من المتعصبين عليه بمدينة طوس: على أي المذاهب أنت؟ أجابهم أبو حامد بقوله: «أما في العقليات فعلى مذهب البرهان وما يقتضيه دليل العقل، وأما في الشرعيات فعلى مذهب القرآن»[٣٤].

ومقاصد الشرع دالة على أن الله تعالى يفعل للحكم والمصالح، فليتأمل المتأمل القرآن يعرف ذلك بالعيان.

**سابعها**: دلت النصوص القرآنية التي لا تدفع على أن أفعال الله تعالى كلها خير وحكمة ومصلحة، وسأتلو بعض الآيات الواردة في هذا المعنى على الخصوص.

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾[٣٥].

وقال في سورة إبراهيم: ﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار**﴾[٣٦].

وقال في سورة النبأ: ﴿**ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا**﴾[٣٧].

---

(٣٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **معراج السالكين**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ١٥٥.

(٣٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام** (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢)، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٣٥) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢٢.

(٣٦) المصدر نفسه، «سورة إبراهيم،» الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.

(٣٧) المصدر نفسه، «سورة النبأ،» الآيات ٦ ـ ١٦.

وقال في سورة النحل: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون**﴾[٣٨].

وقال في سورة النحل أيضاً: ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة. ويخلق ما لا تعلمون**﴾[٣٩].

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى إلا بالكلفة، وهي تغني عن الأقاويل المذكورة في القسم.

وقد سبق إلى التنبيه إلى هذا المنهاج بعض أفاضل الأصوليين، وهو المدقق بدر الدين الزركشي في كتابه **البحر المحيط**. فبعدما ذكر أقاويل العلماء في التعليل بالحكمة واختباطهم فيها، أعرض عن ذلك، واتجه لطلب التحقيقة من الكتاب العزيز، فذلك قوله: «وإذا أردت معرفة الحكمة في أمر كوني أو ديني أو شرعي، فانظر إلى ما يترتب عليه من الغايات في جزئيات الكونيات والدينيات، متعرفاً بها من النقل الصحيح، نحو قوله تعالى ﴿**لنريه من آياتنا**﴾[٤٠] في حكمة الإسراء. وبملاحظة هذا القانون يتضح كثير من الإشكال، ويطلع على لطف ذي الجلال»[٤١].

فهذا الكلام ما أوضحه وأدله، فليتخذ دستوراً للنظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على المخلوقات.

**ثامنها**: قد حكى غير واحد من الأئمة الأثبات، والعلماء الثقات، الإجماع على أن أفعال الله تعالى معللة بالحكمة والمصلحة، مثل الإمام ابن تيمية؛ فإنه نقل عن جمهور الفقهاء والمتكلمين اتفاقهم في ذلك، في كتابه

---

(٣٨) المصدر نفسه، «سورة النحل،» الآيتان ٨٠ ـ ٨١.

(٣٩) المصدر نفسه، «سورة النحل،» الآيات ٥ ـ ٨.

(٤٠) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ١.

(٤١) بدر الدين أبو عبد الله محمد الزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، ط ٢ (الغردقة، مصر: دار الصفوة، ١٩٩٢)، ج ٥، ص ١٢٤.

الذي سماه: **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**. فبعدما فسر الحكمة المتضمنة في أفعال الله تعالى وأحكامه بأنها العواقب المحمودة والغايات المحمودة، قال ما لفظه: «والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم، فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في الأحكام الشرعية، وكذلك ما في خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم»[٤٢].

**تاسعها**: اعلم أن هذا الذي ذكرته في صدر هذا المبحث في حق النافين للتعليل؛ إنما ذكرته مجاراة لكلماتهم الواردة في بعض مصنفاتهم على سبيل استقصاء البحث في المسألة. وإلا فإني أنصف ولا أنكر أن القوم رحمهم الله قائلون بالتعليل، ولا سيما الإمام فخر الدين الرازي الذي اشتهر عنه أنه يمنع تعليل أفعال الله تعالى، وإذا ذكر نفاة التعليل ذكر على رأسهم حتى كأنه إمامهم وحامل لوائهم.

وقد أومأ إلى هذا الإمام ابن القيم في كتابه القيم الذي سماه: **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**[٤٣].

وقد انكشف لي الحق، ووثقت به وثوقاً لا أشك فيه، وأدركته بمشاهدة لا بتلقف من سمع، أسوة بأبي حامد في إعراضه عن طلب الحقيقة من أقاويل الناس.

فحين أغرقت في البحث في كتبه، وأمعنت في التنقيب فيها، ألفيت الرجل مثبتاً للتعليل منخرطاً في سلكه.

ولأستظهر على هذا بإيراد مثالين، أقطع بهما دابر الشك والعناد.

**المثال الأول**: ما ورد في كتاب **عجائب القرآن**؛ حيث علل ـ رحمه الله ـ أهمية علم التوحيد وشرفه وفضله على باقي العلوم بشدة الحاجة إليه في الدين والدنيا، «أما في الدين؛ فلأن من عرف هذه المطالب ـ يعني معرفة ذات الله

---

(٤٢) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، تحقيق محمد رشاد سالم (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٢)، ص ٣٥.

(٤٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق عصام فارس الحرشاني (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧)، ص ٥٢٣.

وصفاته وقدرته وعظمته ـ يستحق الثواب العظيم، ويتخلص من العقاب الأليم، ويصير من زمرة الملائكة المقربين في جوار رب العالمين. ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم، مستوجباً للعقاب الأليم، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين، وبقي في دركات الضلالة أبد الآبدين ودهر الداهرين. وأما في الدنيا؛ فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب، والرهبة من العقاب، وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم»[44].

وأما **المثال الثاني**: فما ذكره من أن الملائكة عليهم السلام، لما قالوا: «﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾[45]، فكان المراد من خلق هؤلاء ليكونوا سبب الشر والفتنة، وذلك قبيح، والحكيم لا يفعل القبيح. فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾، والمعنى ـ والله أعلم ـ أني لما كنت عالماً بكل المعلومات، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلمونها أنتم، فلما سمعوا ذلك سكتوا»[46].

فيا ليت شعري هل يختلج في إثبات هذين المثالين للتعليل ريب؟ أو يسنح في خواطر أحد أن يناقش في تقريرهما للحكم والمصالح في أفعاله تعالى ببنت شفة؟

فالطعن على الرجل تحكم محض، وظلم صرف.

وأشباه ذينك النصين مما يكثر وجوده في تصانيف الإمام الرازي، يطلبها المنصفون.

## ثانياً: المقصود الأقصى من خلق الأفعال

هذا المبحث مهم جداً لاحتوائه على دقائق من العلم قلما يقع التنبيه إليها في كتب أهل العصر وبحوثهم؛ ذلك أن غاية الخائضين في مسألة التعليل، اقتصارهم على التنبيه على أن أفعال الله تعالى موضوعة لعلل حكمية ومصلحية، من غير بيان المقصد الأصلي من خلقها، ورد كلام نفاة التعليل رداً غير جميل، واستبعاده غير مقصرين في الاستبعاد، واستفراغ الجهد في استهجان

---

(٤٤) فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **عجائب القرآن** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤)، ص ١٦ ـ ١٧.

(٤٥) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٣٠.

(٤٦) الرازي، المصدر نفسه، ص ٢٠.

مقالاتهم، واسترذال عباراتهم. ولبعضهم في ذلك لهجة شديدة، فيها سوء أدب مع أئمة كبار، وعلماء أخيار، كالإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ وغيره من النظار الذين لو قيس علمه بالإضافة إلى علمهم لكان كنقطة في بحر أو أصغر(٤٧).

فنعوذ بالله تعالى من علم لا ينفع، فالبله أدنى إلى الخلاص من كياسة ناقصة وفطانة بتراء. ونسأله سبحانه التقى، فإنه من يتق الله يعلمه الله.

و إذا تقرر هذا فأقول: كل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المقصود منه. ونعم الله تعالى المودعة في خلقه، وحكمه المندرجة تحت أفعاله ليست تراد لذاتها، بل تراد لغيرها، وذلك الغير لا محالة أفضل منها، وهو الاستعانة بها على الوصول إلى الله تعالى ونيل درجة القرب.

وعنه عبر أبو حامد ـ رحمه الله ـ حيث قال: «نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب»(٤٨).

ونظيره قوله: «كل ما خلق في الدنيا؛ إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى»(٤٩).

فاستبان بهذا أن مطلوبات الشرع إما مقاصد أو وسائل صالحة لما هو أصلح منها. وأن هذه النعم حقها أن لا تقصد في أعيانها، وإنما تتخذ مطية لنيل سعادة القرب.

وليس يصل العبد إلى هذا المقصود إلا إذا شكر الله تعالى على هذه النعم شكراً ليس باللسان؛ وإنما هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه على قدر الإمكان.

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في معرض حديثه عن أسباب قصور الخلق عن شكر النعمة. فلنذكر النص على كماله؛ فإن المقصود أيضاً بيان الأسباب الصارفة عن شكر الله تعالى.

---

(٤٧) مثل الشيخ حبيب أحمد الكيرانوي. انظر: حبيب أحمد الكيرانوي، **قواعد في علوم الفقه** (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٩)، ص ٢٠٦ وما بعدها.

(٤٨) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١١٧.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٧.

قال أبو حامد في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء** ما نصه: «إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة؛ فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها. ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل. فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان»[٥٠].

وقال في هذا الكتاب أيضاً يبين حقيقة الشكر: «الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة»[٥١].

فكل من استعمل نعمة من نعم الله تعالى في طاعته فقد شكر لموافقة محبة مولاه، وكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها، ولا على الوجه الذي أريد به، فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه[٥٢].

وصرف النعمة إلى المقصود منها بالحكمة يستوجب معرفة حكمة الله تعالى في كل شيء خلقه. فمن لم يعرف الحكمة والغاية التي تنساق إليها كيف يشكر؟

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في معرض كلامه على مدارك تمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه من «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء**، فنذكر النص على تمامه؛ فإن معرفة طرق تمييز محاب الله تعالى من مكروهاته مطلوبة أيضاً.

قال أبو حامد ـ رحمه الله ـ ما لفظه: «لتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان: **أحدهما** السمع؛ ومستنده الآيات والأخبار. **وثانيهما** بصيرة القلب؛ وهو النظر بعين الاعتبار.

وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز. فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لا يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

(٥٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦١.
(٥١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٢.
(٥٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٧.

وأما **الثاني**، وهو النظر بعين الاعتبار: فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه؛ إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية»[٥٣].

ولعل هذا يصعب فهمه؛ فلنذكر أمثلة ورد بها **الإحياء**، يصير معها الأمر أتم وضوحاً وانكشافاً.

فمن أمثلة الحكم الخفية التي يذكرها أبو حامد ليعتبر بها، ويعلم طريقة الشكر والكفران على النعم، أن الله تعالى خلق الدراهم والدنانير، وفي خلقهما حكم كثيرة:

منها: **أولاً**، أن الله تعالى خلقهما لتتداولها الأيدي، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل. وهناك حكمة **ثانية**: وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء؛ لأنهما عزيزان في أنفسهما، ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأحوال كنسبة واحدة، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً فإنه لا يملك إلا الثوب[٥٤].

فهذا من جملة حكم الدراهم والدنانير لا كل الحكم فيهما.

فمن صرف نعمة الدراهم والدنانير إلى المقصود منها بالحكمة فهو الذي يقال إنه شكر الله تعالى، وكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله فيهما[٥٥].

وقد ذكرت مثال صرفهما إلى المقصود منهما بالحكمة، فلأذكر الآن أمثلة صرفهما عن المقصود منهما بالحكمة.

فمن ذلك كنزهما، قال أبو حامد: «من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه. لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم، ولا يحصل الغرض المقصود به. وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة؛ إذ لا غرض للآحاد

---

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٩.
(٥٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢١.
(٥٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢١.

في أعيانهما؛ فإنهما حجران، وإنما خلقتا لتتداولهما الأيدي، فيكونا حاكمين بين الناس»[٥٦].

وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة؛ فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز؛ لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس. والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود، فمن لم ينكشف له هذا، انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له: من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم[٥٧].

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم؛ لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما؛ إذ لا غرض في عينهما. فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة؛ إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم[٥٨].

قال أبو حامد عقيب إيراده لهذه الأمثلة ما نصه: «فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثل، فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن لا يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة: ﴿**ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا**﴾[٥٩]، ولكن لا صدف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب»[٦٠].

فهذا كلام سديد، وقد تجد أنه يتضمن توكيد ما تقرر سابقاً من أن من فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر.

---

(٥٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢١.

(٥٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢١ ـ ١٢٢ وقوله. «من شرب في آنية» إلى آخر الكلام، حديث متفق عليه من حديث أم سلم. انظر: العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ٤، ص ١٢٢.

(٥٨) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٢.

(٥٩) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢٦٩.

(٦٠) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٣.

وعلى هذا المثال ـ أعني الدراهم والدنانير ـ ينبغي أن يقيس العبد حركته وسكونه ونطقه وسكوته، وكل فعل صادر عنه؛ فإنه كما صرح بذلك أبو حامد، إما شكر وإما كفر؛ إذ لا يتصور أن ينفك عنهما.

وقد جاء **إحياء** أبي حامد بأمثلة موضحة للمقصود، أوردها حتى يعلم علة الصدق في قول الغزالي ـ رحمه الله: إن جميع حركات العبد إما شكر وإما كفر(٦١).

**المثال الأول**: إذا استنجى الإنسان باليمنى فقد كفر نعمة اليدين؛ إذ خلق الله له اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى؛ فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله يأمر بالعدل، ثم أحوجه من أعطاه اليدين إلى أعمال: بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة. فإذا أخذ المصحف باليسار وأزال النجاسة باليمين فقد خص الشريف بما هو خسيس، فغض من حقه وظلمه وعدل عن العدل(٦٢).

**المثال الثاني**: إذا بصق الإنسان في جهة القبلة أو استقبلها في قضاء الحاجة؛ فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الجهات لتكون متسعة في حركته، وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها، بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبه إليه، ليتقيد به قلبه، فيتقيد بسببه بدنه في تلك الجهة، على هيئة الثبات والوقار إذا عبد ربه، ولذلك انقسمت أفعال العبد إلى ما هي شريفة كالطاعات، وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رمى بصاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها، وكفر نعمة الله عليه بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادته(٦٣).

**المثال الثالث**: إذا لبس العبد خفه فابتدأ باليسرى فقد ظلم؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف، فهو العدل والوفاء والحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل(٦٤).

---

(٦١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٣.
(٦٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤.
(٦٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤.
(٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤.

**المثال الرابع**: من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة، ومن غير حاجة غرض صحيح؛ فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد. «أما اليد؛ فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر؛ فإنه خلقه الله تعالى، وخلق له العروق، وساق إليه الماء، وخلق فيه الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه، فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه، لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل؛ فإن كان له غرض صحيح فله ذلك؛ إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان؛ فإنهما جميعاً فانيان هالكان، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾**»[٦٥].

**المثال الخامس**: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه، وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا؛ إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم[٦٦].

والحق الذي لا كدورة فيه، والعدل الذي لا ظلم فيه، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه، فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة[٦٧].

فهذا ما ورد به **إحياء علوم الدين** من الأمثلة. وقد يرى أنني نزعت إلى التطويل، وأبيت إلا التفصيل، وهذا كأنه إطناب، لكنه إطناب يفضي إلى البيان، ولا يرد على سمع ذي لب فيصدر إلا عن استحسان، ثم إن المقصود أن ينظر القارئ بنفسه، فليس الخبر كالعيان.

فإذا قلب في ما أوردته طرفه وتأمله؛ فليس يشك في أن حاصله قد رجع إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً

---

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤ ـ ١٢٥، **والقرآن الكريم**، «سورة الجاثية،» الآية ١٣.
(٦٦) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٥.
(٦٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران[٦٨].

نسأله سبحانه أن يغمر أفئدتنا بأنوار اليقين، حتى نهتدي بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد (ﷺ) سيد المرسلين، ونطلع بها على حكمه وغاياته في خلق العالمين.

**فوائد الفصل**

١ ـ قد تبين بما ذكرته أن أبا حامد لا تفوته مقاصد الأفعال الإلهية. والحكم الربانية، ولم يكن ليخفى عليه شيء منها وهو من أئمة المقاصد وأسنادها.

٢ ـ كلمات أبي حامد صريحة في أن لله تعالى في أفعاله كلها مقصداً كلياً، وهو شكره على نعمه، وطلب معرفته، ونيل سعادة حضرته. وهناك أسرار جزئية يتضمنها كل فعل على حدة.

٣ ـ قول أبي حامد: «إذا لم يعرف ـ العبد ـ حكمة الله في كل شيء كيف يقوم بشكر نعمة الله عليه»[٦٩] فيه إشارة إلى أنه من كان خبيراً بأسرار الأفعال الإلهية، بصيراً بحكمها البالغة، مستبصراً بلطائفها، فهو الذي يستطيع شكر الله تعالى على نعمه عليه؛ لأنه لا يصرفها إلا في الوجه الذي أريدت به. ومن كان بهذه الصفات متصفاً؛ فحقيق على الله أن لا يدخله إلا في زمرة عباده الشاكرين، وقليل ما هم، دل عليه شاهد قوله تعالى ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾[٧٠].

٤ ـ قول أبي حامد: «لله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب، يطلب معرفتها المحبون لله تعالى»[٧١].

ما الذي أراد به؟

---

(٦٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.
(٦٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.
(٧٠) **القرآن الكريم**، «سورة سبأ،» الآية ١٣.
(٧١) الغزالي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٤.

فإن كان المقصود بلفظة «المحبين»: أئمة الدين وعلماء المسلمين، فلم يخرج ما قاله أبو حامد عن كونه صحيحاً. وإن كان المقصود فرقة بعينها وهي الصوفية كما يسنح في الخاطر، ففيه نظر؛ لأن غيرهم يطلبون الحكم والمقاصد.

٥ ـ قول أبي حامد: «لا نصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين»[٧٢].

فيه إشارة إلى مانع من موانع معرفة الحكم والمقاصد، على ما نوضحه في القسم الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى.

٦ ـ قول أبي حامد: «الحق الذي لا كدورة فيه، والعدل الذي لا ظلم فيه، أن لا يأخذ أحد من عباد الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان، إلى حضرة الملك الديان»[٧٣].

فيه دليل على أن الأشياء قد تراد إرادة المقاصد، وقد تراد إرادة الوسائل.

٧ ـ ليس درك الحكم والأسرار سهلاً يسيراً على كافة الخلق. بل ذلك منحة إلهية، وعطية ربانية، ولهذا شاهد من الشرع؛ قوله تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾. وقال صلى الله عليه وسلم داعياً لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[٧٤] إشارة إلى أن مقام التأويل لا يناله كل واحد.

٨ ـ ينبغي قبض عنان القلم عن الطعن في أئمة الدين؛ مثل الإمام الرازي وابن حزم وغيرهما، وذلك لوجهين:

**الوجه الأول**: أن الخلاف في مسألة التعليل بين الأصوليين لا يبعد أن يكون لفظياً. وقد نزع إلى هذا المعنى الشيخ الطاهر بن عاشور، فإنه قال:

---

(٧٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٣.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.

(٧٤) رواه مسلم من حديث ابن عباس دون قوله: «وعلمه التأويل». انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم»، باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنه، حديث ٢٤٧٧، ح ١٦، ص ٣١، وهو بهذه الزيارة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد. انظر أيضاً: العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» ج ١، ص ٥٤.

«والمسألة مختلف فيها بين المتكلمين اختلافاً يشبه أن يكون لفظياً؛ فإن جميع المسلمين اتفقوا على أن أفعال الله تعالى ناشئة عن إرادة واختيار، وعلى وفق علمه، وأن جميعها مشتمل على حكم ومصالح، وأن تلك الحكم هي ثمرات لأفعاله...»[٧٥].

**الوجه الثاني**: أني قد أقمت البرهان على أن القوم مثبتون للتعليل، ولا سيما الإمام الرازي.

لكن إن تحجر واحد وأصر على اعتبارهم نفاة للتعليل. فليس يجب أن يكون هذا مسوغاً يجاوز به في الطعن عليهم حد الاعتدال. فلعل لهم تأويلاً وعذراً لم نطلع عليه. والمرء في هذا المقام بين أن يسيء الظن بمسلم ويطعن عليه ويكون كاذباً، أو يحسن الظن به ويكف لسانه عن الطعن وهو مخطىء مثلاً، والخطأ في حسن الظن بالمسلم أسلم من الصواب بالطعن فيه.

فنسأل الله تعالى الذي بنعمته تنزل البركات، وبفضله تتم الصالحات، أن يجعلنا ممن هداه واجتباه، وأرشده إلى معرفة أسراره في موجوداته، وحكمه في مخلوقاته، إنه كريم وهاب مجيب.

---

(٧٥) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٣٧٩.

# الفصل السادس

## في السمعيات

### أولاً: في النبوة ومقاصدها

#### ١ ـ في بيان الطريق التي يعرف منها صدق الرسول (ﷺ)

يذهب الإمام الغزالي في كتابه **المنقذ من الضلال** إلى أن معرفة النبي كونه نبياً ليس من المعجزات التي ظهرت على يديه، «من قلب العصا ثعباناً وشق القمر؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر وتخييل»، وإنما يعرف ذلك بكشفه عن أسرار العبادات وخواصها، وكيفية تأثيرها في تصفية القلوب، وغير ذلك من الخواص التي يعجز العقل عن درك أسرارها، وإنما تدرك أسرارها من طريق النبوة[1].

#### ٢ ـ في أن أسرار العبادات تدرك من طريق النبوة لا بطريق العقل

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى ويؤكده في **المنقذ من الضلال** تأليفه: «وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء، فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال** ([د. م.]: دار العلم للجميع، [د. ت.])، ص ٦٩.

وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذي أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن الأدوية تركبت من أخلاط مختلفة، وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي أدوية القلوب، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار؛ حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، ولا يخلو عن سر من الأسرار، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة. ولقد تحامق وتجاهل من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة، أو ظن أنها ذكرت على سبيل الاتفاق، لا عن سر إلهي فيها، يقتضيها بطريق الخاصية. وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها، وزوائد هي متمماتها، لكل واحد منها خصوص وتأثير في أعمالها. كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات»[٢].

فهذا النص من أظهر الحجج على أن العقل عند أبي حامد لا يستقل بدرك أسرار الشريعة.

وفي هذا النص أيضاً؛ دليل على أن مقاصد شريعته صلى الله عليه وسلم منقسمة إلى ما يقع في مرتبة المقاصد الأصلية، وإلى ما يجري مجرى التتمات والتكملات لهذه المقاصد.

وفيه أيضاً إشارة إلى طريق من طرق معرفة مقاصد الشرع؛ وهو طريق النبوة على ما أوضحه بعد إن شاء الله تعالى.

وكون العقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة، عاضده مصرح به في «كتاب العلم» من **الإحياء**؛ حيث قال أبو حامد ما نصه: «وفي دقائق سنن الشرع وآدابه، وفي عقائده التي تعبد الناس بها؛ أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد. فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى، وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير»[٣].

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب العلم،» أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ٤٦.

وكون العقائد مصفية للقلوب، مزكية لها ومصلحة من أدل الدليل على اشتمال العقائد على مصالح ومنافع وفوائد. وأن ذلك ذريعة لنيل درجة القرب من الحضرة الإلهية، وقد تقدم بيان ذلك.

## ٣ ـ في إبطال أبي حامد لقول الفلاسفة في معنى النبوة

يزعم الفلاسفة أنهم أدركوا حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات، وأنهم ليسوا من العوام الجهال حتى يدخلوا في حجر التكليف، وإنما هم من الحكماء يتبعون الحكمة، وهم بصائر بها مستغنون فيها عن التقليد[٤].

وهذا كلام فج، ليس يخلو عن تخبيط وتخليط. وقد رد الغزالي عليه رداً لم يقصر فيه، وأورد في الكشف عنه ما أغنى به غيره، فقال: «وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة، فهو على التحقيق كافر بالنبوة، مؤمن بحكم له طابع مخصوص، يقتضي طابعه أن يكون متبوعاً، وليس هذا من النبوة في شيء، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل، تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات»[٥].

وقد تعجب أبو حامد من هؤلاء كيف أنهم يصدقون بوجود خواص في بعض الأمور؛ مثل قولهم: إن في الأفيون خاصية في التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة. فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة العقلية، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة[٦].

والأعجب من هذا؛ أنهم يعترفون بخواص عجيبة مجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق، قال أبو حامد: «فيا ليت شعري من يصدق بذلك، ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع، والمغرب بثلاث، هي لخواص غير معلومة بنظر الحكمة؟ وسببها

(٤) الغزالي، **المنقذ من الضلال**، ص ٧٣.
(٥) المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٧٨ ـ ٧٩.

اختلاف هذه الأوقات، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة»[7].

وإذن فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى بيان أمرين: **أحدهما** أن العقول تقصر عن إدراك أسرار الشرع. **والثاني** أن مقاصد الشريعة تدرك من طريق النبوة.

## ٤ ـ في ذكر شيء من مقاصد نبوته صلى الله عليه وسلم

إعلم وتحقق أن حاصل مقصود نبوته عليه الصلاة والسلام يرجع إلى رعاية مصالح العباد. عرف ذلك بالآيات والأخبار، وقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده.

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى ويؤكده: «ومن نظر في أقواله عليه الصلاة والسلام، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده»[8].

وقد أظهرت شيئاً من هذا في معرض كلامي على مقاصد النبوة من بحثي «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، حيث بينت هناك أن حاصل كلام أبي حامد رحمه الله في مقاصد نبوته صلى الله عليه وسلم راجع إلى «أنه صلى الله عليه وسلم كان شديد الحنان والرأفة والرحمة على أمته، حريصاً على أن يجلب لهم جميع الخيور، ويدفع عنهم جميع الشرور، مجتهداً على أن يوضح لهم طرق الخير ويأمرهم بالمبادرة إليها، مسارعاً إلى تحذيرهم مما يفضي بهم إلى عقوبة أو لوم أو ضرر دائم، أو جهالة ساترة لما يراد بهم في المستقبل»[9].

وقد تقرر لي هذا استناداً إلى ما ورد في تصانيف أبي حامد من نصوص لا تكاد تحصى في بيان هذا المقصود.

فإذا ثبت في نفس واحد كشف. أو باعتقاد جازم؛ أنه صلى الله عليه وسلم بعث لسوق العباد إلى نيل سعادة الدنيا والآخرة، واعتقد مع ذلك تمام العناية

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٩) محمد عدو، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط)، ص ٢٧.

والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى عنايته به ورحمته له عناية ورحمة، فليكن حريصاً على ملازمة شريعته ومتابعته في مصادره وموارده، وإلا انقلبت الرحمة والسعادة في حقه إلى ضدها، وذلك العذاب والشقاوة.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقول أبي حامد في كتابه **المعارف العقلية**، فإنه قال: «فمن قبل شرعه، واتبع دينه، وأطاع أمره فهو في الدنيا مرحوم، وفي الآخرة مسعود مكرم أبد الآبدين برحمة رب العالمين، وما كان محمد بذاته رحمة، بل كان بنبوته وشريعته رحمة»[١٠].

وهذا الأصل الذي انبنت عليه شريعة نبينا (ﷺ) موجود في شرائع الرسل السابقة.

وإلى هذا المعنى يرشد كلام أبي حامد: «الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء»[١١].

ومن مستندات أبي حامد في تقرير هذا المقصد؛ قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[١٢]، وقوله صلى الله عليه وسلم «إنما تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»[١٣].

قال الغزالي عقيب ذلك: «وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك»[١٤].

ومن مستندات أبي حامد في تقرير هذا المقصد أيضاً دليل كلي وهو الاستقراء، دل عليه شاهد قوله: «عرفنا من أدلة الشرع أن الله تعالى ببعثه الرسل وتمهيد بساط الشرع أراد صلاح أمر الخلق في دينهم ودنياهم»[١٥].

---

(١٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المعارف العقلية**، حققه وقدم له عبد الكريم العثمان (دمشق: دار الفكر، [١٩٦٣])، ص ٨٤.

(١١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ١٤٠.

(١٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة وابن حبان من حديث أبي هريرة.

(١٣) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة. انظر: **صحيح مسلم**، «كتاب الفضائل»، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، الحديثان ٢٢٨٤ و٢٢٨٥، ج ١، ص ٤٠ ـ ٤١.

(١٤) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٤١.

(١٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل**، تحقيق حمد الكبيسي، إحياء التراث الإسلامي؛ ٢ (بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، ١٩٧١)، ص ٤٢٠.

فبان بهذا وبنظائره ما قلته من أن المقصود من بعثة الأنبياء (ﷺ) هداية خلق الله تعالى إلى مصالح الدنيا والآخرة.

ولعل أهم هذه المصالح على الإطلاق سياق العباد إلى درك سعادة القرب من الحضرة الإلهية. ومن أوضح ما يستدل به على ذلك قول أبي حامد في «كتاب التوبة» من **الإحياء**: «إنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء»[١٦].

ومن المقاصد التي جاء الأنبياء (ﷺ) لتحقيقها أيضاً دعوة الخلق إلى كمال التوحيد، وهو أن لا يروا إلا الله تعالى وأفعاله[١٧].

ومن مقاصد النبوة كذلك السعي في نيل العباد لملك الدنيا والآخرة، وعنه العبارة بقول أبي حامد: «فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا، ملوكاً في الآخرة»[١٨].

ومن مقاصد النبوة أيضاً؛ محبة الله تعالى، فإنها «الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات»[١٩].

وكمال حب العبد عند أبي حامد في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه. وعنه العبارة بقوله: «وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم**﴾[٢٠]... بل هو معنى قولك: «لا إله إلا الله»، أي لا معبود ولا محبوب سواه، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد به. وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿**أرءيت من اتخذ إلهه هواه**﴾[٢١]، وقال صلى الله عليه وسلم «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»، ولذلك قال عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل

---

(١٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوبة،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٢٦.

(١٧) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١١٦.

(١٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠٢.

(١٩) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٨٩.

(٢٠) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٩١.

(٢١) المصدر نفسه، «سورة الفرقان،» الآية ٤٣.

الجنة»، ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله؛ فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط»[٢٢].

وأقتصر على هذا القدر من مقاصد النبوة. وفي المسألة أمور وراء ما ذكرت، أوردت طرفاً منها في بحثي «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، فلا أعيد ذكرها[٢٣].

## ثانياً: في القضاء والقدر وأسرارهما

اعلم أن للمتكلمين في هذا المبحث كلاماً طويل الذيل، قليل النيل، فلا أطول بذكره، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى، فأقول وبالله التوفيق:

ها هنا مسائل سبع؛ بها يتضح الكلام إن شاء الله تعالى.

### ١ ـ في بيان مصدر القضاء والقدر ومعناهما

يصرح أبو حامد الغزالي في كتابه **المقصد الأسنى** أن القضاء والقدر يتشعبان من اسم الله «الحكم»، وأن لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية. فذلك قوله: «ومن الحكم ينشعب القضاء والقدر، فتدبير أصل وضع الأسباب ليتوجه إلى المسببات حكمه، ونصبه الأسباب الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تزول ولا تحول؛ كالأرض والسموات السبع، والكواكب، والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تتقدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله قضاؤه. . . وتوجيه هذه الأسباب؛ تحريكاتها المقدرة المحسوبة إلى المسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره. فالحكم هو التدبير الأول الكلي، والأمر الذي هو كلمح البصر. والقضاء هو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة. والقدر هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوبة إلى مسبباتها المحدودة المعدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص»[٢٤].

ففي هذا الكلام بيان وإشكال.

---

(٢٢) الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» ج ٤، ص ٤١٧.

(٢٣) عبدو، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

(٢٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ٦٧.

أما البيان؛ فهو أن أسرار الله تعالى في خلقه ومقاصده التي تضمنته عقائده، والمصالح التي تنطوي عليها شرائعه ليس يخرج شيء منها عن قضائه تعالى وقدره، وأن شيئاً منها لم يكن على اتفاق بحت، بل عن إرادة وحكمة مقصودة.

وأما الإشكال؛ فهو أنه خطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل؟

وقد أوضح أبو حامد هذه المسألة، وبين أن الناس بالإضافة إلى هذا الأمر فريقان: «فريق لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع، وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم ﴿**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾[٢٥].

وفريق امتلأت مشكاته نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها، فأدركوا الأمور كما هي عليه، فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا؛ فإن للحيطان آذاناً، وحواليكم ضعاف الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش، فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم، كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله، وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس»[٢٦].

### ٢ ـ في أن للقدر سراً منع الشرع من إفشائه

إذا أمعنا النظر في كلام أبي حامد الذي سقته تبين لنا أن لله تعالى في القدر سراً نهى الشرع عن إفشائه لمصلحة العباد.

ولم يشر أبو حامد إلى هذا المعنى إلا رمزاً، لكنه يطلق القول في

---

(٢٥) **القرآن الكريم**، «سورة الأنبياء،» الآية ٢٣، والغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٢٨.

(٢٦) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٢٨.

مواضع لا تحصى من تواليفه بأن لله تعالى في القدر سراً تحير فيه الأكثرون، ومنع من إفشاء سره المكاشفون[٢٧].

وليس في هذا الكلام ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره الصحابة (رضي الله عنهم)، وإنما يفارقهم بالعبارات والاصطلاحات.

يدلنا على ذلك أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في ما أورده أبو حامد في كتابه **الأربعين**: «أمسك لما سئل عن القدر، فقال للسائل: بحر عميق لا تلجه، ولما كرر السؤال قال: طريق مظلم لا تسلكه، ولما كرر ثالثاً قال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه»[٢٨].

فنحن نرى أن مذهب أبي حامد في هذا هو عين مذهب عمر (رضي الله عنه).

ولهذا أيضاً شاهد من الشرع؛ أورده أبو حامد في كتابه «الصبر والشكر» من **الإحياء**، وهو أن النبي (ﷺ) نهى عن إفشاء سر القدر[٢٩].

ولأجل هذا؛ كانت صدور الصحابة (رضي الله عنهم) قبوراً للأسرار. لكن لما انتهت النوبة إلى المتأخرين ساروا عكس هذا السير، وخاضوا في ما لم يحسنوه من مسألة القدر.

وتضييع الوقت بهذا وبأمثاله دأب من لا يميز بين المهم وغيره، ولا يعرف قدر بقية عمره، وأنه لا قيمة له، فيجب ألا يضيع العمر إلا بالمهم. وبين يدي الأنظار أمور مشكلة، البحث عنها أهم من البحث عن سر القدر والتفتيش عن كنهه. فنسأله تعالى أن يوفقنا للاشتغال لما يعنينا.

وما يعنينا بحسب ما ورد في تصانيف أبي حامد، هو بيان المصالح التي ينطوي عليها القضاء والقدر، وهي:

---

(٢٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٧، وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٤٣.

(٢٨) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٨.

(٢٩) حديث «النهي عن إفشاء سر القدر» رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر: «القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره». لفظ أبي نعيم. أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،» في ذيل: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٣٠.

## ٣ ـ في أن الرضا بقضاء الله تعالى مصلحة، وأن السخط به مفسدة

قد بينت وجه كون العقائد كافة انبنت على رعاية مصالح العباد. وإذا أردت أن أقرر وجه ذلك بالإضافة إلى آحاد العقائد عند أبي حامد؛ مثل القضاء، فمن سبيلي أن أعمد إلى كلام ورد به كتاب **منهاج العابدين**، حيث صرح أبو حامد بأن من رضي قضاءه تعالى واتته كل مصلحة ومنفعة، ومن سخط قضاءه سبحانه لحقته كل مضرة، وذلك في الدنيا والآخرة.

فذلك قول أبي حامد: «وأما الرضا بالقضاء فتأمل فيه أصلين مقنعين لا مزيد عليهما .**أحدهما** ما في الرضا من الفائدة في الحال والمآل، أما الفائدة في الحال؛ ففراغ القلب وقلة الهم من غير فائدة. . . وأما الفائدة في المآل؛ فثواب الله تعالى ورضوانه .**والأصل الثاني** ما في السخط من الخطر والضرر والفكر والنفاق، إلا أن يتداركه الله تعالى، وتأمل قوله تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾[٣٠]، فنفى الإيمان، وأقسم على فقد الإيمان عمن سخط ووجد في نفسه حرجاً من قضاء رسول الله (ﷺ)، فكيف حال من سخط قضاءه تعالى»[٣١].

فتأمل هذا الكلام ما أحسنه!

وإذن؛ فليس للعبد إلا الرضا بقضاء الله تعالى، ففي ذلك مصلحته الدنيوية والأخروية. وأما من سخط قضاء الله تعالى فلا يؤمن في حقه الخطر.

وليس يخفى على ذي بصيرة ما في هذا الكلام من التنبيه على ما في الرضا بالقضاء من المصالح المعنوية، وما في السخط به من المفاسد المعنوية.

## ٤ ـ في بيان أن من أسرار حكمة الشارع الحكيم في القضاء والقدر فعل الأصلح دون الأفضل

وقد أورد أبو حامد في هذا المعنى كلاماً ينكشف فيه الحق انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، فإنه قال: «وقد يفعل ـ

---

(٣٠) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ٦٥.

(٣١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

يعني الله تعالى ـ بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله»[٣٢].

ثم احتج أبو حامد لهذا بشواهد من الواقع.

فقد قدر للنبي (ﷺ) وأصحابه أن يناموا طول الليل إلى طلوع الشمس في بعض الأسفار، حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر، والصلاة أفضل من النوم.

وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة في الدنيا، وإن كان الفقر أفضل، وربما يقدر له الاشتغال بالأزواج والأولاد وإن كان التجرد لعبادة الله عز وجل أفضل، فإنه بعباده خبير بصير[٣٣].

ويشبه أبو حامد عمل الشارع بعمل الطبيب الحاذق الناصح؛ فإنه يختار للمريض ماء الشعير، وإن كان ماء السكر أفضل وأنفس، لما علم أن صلاح علته في ماء الشعير، والمقصود للعبد النجاة من الهلاك، لا الفضل والشرف مع الفساد والهلاك»[٣٤].

فهذا الكلام من أبي حامد برهان نيّر، ودليل بيّن، على أن مبنى القضاء والقدر على رعاية مصالح العباد. وهذا تصديق للقاعدة المقررة في هذا الفن، وهي أن الله تعالى تعبد خلقه بهذه العقيدة لما فيها من صلاحهم في الدين والدنيا.

## ٥ ـ في أن قضاء الله تعالى وقدره خير لا شر فيه وعدل لا جور فيه

وإلى هذا المعنى الإشارة بقول أبي حامد في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء**، فإنه قال: «وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية؛ فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا جور فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره؛ إذ

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ١١٧.

لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة. وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنن بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل. وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لم يظهر شرف الإنس؛ فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل؛ لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه، وحق لا لعب فيه»(٣٥).

فلننظر كم من حسن اشتمل عليه هذا النص؛ من أسرار لطيفة، ومصالح قد صرح بإرادتها، ومفاسد قد صرح بعدم إرادتها. وفيه علاوة على ذلك أن المصالح إضافية، على ما أبينه في القسم الذي يلي هذا، وبالله التوفيق.

## ٦ ـ في أن قضاء الله تعالى وقدره لا يعتريهما نقص، بل هما على غاية التمام والكمال

نصوص **الإحياء** وغيره مصرحة بهذا المعنى تصريحاً يفهمه كل عاقل، بحيث لو جمع ما ورد في ذلك منها لجاء مؤلفاً بسيطاً.

وحسبنا من ذلك ما ورد في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء**، حيث صرح أبو حامد رحمه الله، بأن «الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات، حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة، ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به

(٣٥) الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» ج ٤، ص ٣٤٣.

عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا قصور»[٣٦].

فانظر إلى حسن هذا البيان: أثبت لله الكمال في قضائه وقدره، ونفى النقص فيهما، وصرح بقصور الخلق عن تدبير يفوق تدبير الإلهية.

### ٧ - في أن المقدور كائن

قد عرفنا فيما سبق؛ أن حظ العبد من أسماء الله الحسنى هو التحلي بمعانيها والتخلق بأخلاقها وإذا كان كذلك؛ فينبغي أن يكون حظ العبد من اسم الله «الحكم»، الذي منه يتشعب القضاء والقدر، أن يعلم «أن الأمر مفروغ منه وليس بالآنف، وقد جف القلم بما هو كائن، وأن الأسباب قد توجهت إلى مسبباتها، وانسياقها إليها في أحيانها وآجالها حتم واجب. فكل ما يدخل في الوجود فإنما يدخل بالوجوب، بالقضاء الأزلي الذي لا مرد له، فيعلم أن المقدور كائن، وأن الهم فضل. فيكون العبد في رزقه مجملاً في الطلب، مطمئن النفس، ساكن الجأش، غير مضطرب القلب»[٣٧].

فهذا مقدار ما أردت أن أذكره في هذا المبحث. وقد وفيت بالمقصود والحمد لله.

## ثالثاً: في مقاصد الإمامة وفوائدها

الإمامة وإن كانت مبنى من مباني الاعتقادات، إلا أن أبا حامد يرى أنها ليست من المهمات، كما أنها مثار للتعصبات، وأن المعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض، بل وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ[٣٨].

وهو إن خاض فيها؛ فلأن الرسم جرى باختتام المعتقدات به، وأنه أراد أن يسلك المنهج المعتاد؛ إذ القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديدة النفار[٣٩].

---

(٣٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٣.

(٣٧) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٧٠.

(٣٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٤٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

على أنه ـ رحمه الله ـ لم يخض فيها كالذين خاضوا، بل تكلم عما لم يتكلموا عليه، وتحدث عما أغفلوا التحدث عنه. وهو بيان مقاصدها الكلية، وفوائدها العامة. فلنبادر إليه، ولنعرج في الحال عليه، ونقول:

النظر في مقاصد الإمامة من وجهين:

**الوجه الأول**: في بيان رتبة الإمامة من المقاصد. يذهب الإمام الغزالي إلى أن الإمامة ليست تراد لذاتها، وإنما لتكون وسيلة إلى المقصود، وهو الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

ويتضح هذا مما يقوله أبو حامد في معرض بيانه لوجوب نصب الإمام من كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد**. فبعدما صرح بأن وجوب نصب الإمام لا ينكر لما فيه من الفوائد ودفع المضار في الدنيا، قال ما نصه: «نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه السلام قطعاً، وهذه مقدمة قطعية لا يتصور النزاع فيها، ونضيف إليها مقدمة أخرى؛ وهو أنه لا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع، فيحصل من المقدمتين صحة الدعوى وهو وجوب نصب الإمام»[٤٠].

وهذا الكلام المنظوم في صورة قياس منطقي غير متضح، بل تحته إجمال، فيفتقر إلى توضيح. وقد بالغ أبو حامد في البيان بقوله: «نظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات، والأمن هو آخر الآفات، ولعمري من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وليس يأمن الإنسان على روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الأحوال، بل في بعضها، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة، فإذن؛ بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين.

وأما المقدمة الثانية: وهي أن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة، وأن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع، دام الهرج وعمر السيف

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

وشمل القحط وهلكت المواشي وبطلت الصناعات، وكان كل غلب سلب، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقي حياً، والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف، ولهذا قيل: الدين والسلطان توأمان، ولهذا قيل: الدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع. وعلى الجملة لا يتمارى العاقل في أن الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الأهواء، وتباين الآراء، لو خلوا وراءهم، ولم يكن رأي مطاع يجمع شتاتهم، لهلكوا من عند آخرهم، وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهر مطاع يجمع الآراء. فبان أن السلطان ضروري في الفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه»[٤١].

فقد تحصلنا من هذا على ثلاثة مقاصد:

مقاصد مخدومة، ومقاصد خادمة من وجه ومخدومة من وجه، ومقاصد خادمة فقط.

**فالأول**: وهو المقاصد المخدومة؛ فالمعرفة والعبادة؛ فإنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصد دونها.

نعم باعتبار الآخر؛ فإنها تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، وهي لذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، على ما بينته سابقاً.

**الثاني**: المقاصد الخادمة، وهي الإمامة؛ فإنها تقصد لغيرها ولا غرض أصلاً في ذاتها. وهذا الغير الذي تراد له، هو تحقيق الأمن على مهمات الشرع الضرورية ومقاصده الكلية أعني: الأنفس والأموال والفروج، ويتكفل بذلك الإمام.

**الثالث**: المقاصد الخادمة والمخدومة، كصحة البدن والسلامة؛ فإنها تقصد ليقدر بسببها على المعرفة والعبادة، فهي بهذا الوجه خادمة، وتقصد أيضاً لذاتها؛ إذ بدوامها يدوم الدين، ولن يدوم البدن إلا بانتظام الدنيا، ويتولى ذلك حارس السالكين، وكافل المحقين، نائباً عن رسول رب العالمين، وهي بهذا الوجه مخدومة.

فبان بهذا الكلام أهمية الإمامة، ورتبتها من المقاصد.

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

**الوجه الثاني**: استبان بما ذكرته في **الوجه الأول** رتبة الإمامة من المقاصد، وكون الحاجة ماسة إليها في الدين والدنيا. ومع ذلك؛ فإن الذي يسير إليه كلام أكثر المصنفين في الإمامة على ما أورده أبو حامد في كتابه **فضائح الباطنية** يقتضي أن لا نعتقد في عصرنا وفي أعصار منقضية خليفة غير مستجمع لشرائط الإمامة، متصفاً بصفاتهم، فتبقى الإمامة معطلة لا قائم بها، ويبقى المتصدي لها متعدياً عن شروط الإمامة غير مستحق لها ولا متصف بها.

وقد تصدى أبو حامد لهذا الاعتقاد مبيناً فساده ووهيه وضعفه بقوله: «وهذا هجوم عظيم على الأحكام الشرعية، وتصريح بتعطيلها وإهمالها، ويتداعى إلى التصريح بفساد جميع الولايات، وبطلان قضاء القضاة، وضياع حقوق الله تعالى وحدوده، وإهدار الدماء والفروج والأموال، والحكم ببطلان الأنكحة الصادرة من القضاة في أقطار الأرض، وبقاء حقوق الله تعالى في ذمم الخلق؛ فإن جميع ذلك لا يتأدى على وفق الشرع إلا إذا صدر استيفاؤها من القضاة، ومصدر القضاة تولية الإمام. فإن بطلت الإمامة بطلت التولية وانحلت ولاية القضاة والتحقوا بآحاد الخلق، وامتنعت التصرفات في النفوس والدماء والفروج والأموال، وانطوى بساط الشرع بالكلية في هذه المهمات العظيمة»[٤٢].

فقد تبين من هذا للناظر البصير أن الإمام ضرورة الخلق، لا غنى لهم عنه في دفع الباطل وتقرير الحق.

وهذا النص، على غرار النص السابق؛ موغل في تأكيد فوائد الإمامة، وبيان مقصود الشرع منها، وهو ضبط كليات الشريعة، وحراسة مقاصدها العامة، ورعاية مصالح الخلق.

فمن عرف مقصود الإمامة، وأنها لماذا تراد، علم أن اعتقاد أولئك فيها يضاده، ويفضي إلى حل عصام الأمور الدينية والدنيوية.

فهذا ما أردت أن أقتصر عليه من مقاصد الإمامة. وبه ينقضي القول في هذا القسم.

---

(٤٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فضائح الباطنية**، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

# القسم الثالث

## في صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد
## وبيان الطرق التي تعرف منها المقاصد

# الفصل السابع

## في صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد

يتولى هذا الفصل صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد، أسلك في بعض مسائلها مسلك الإمام الشاطبي في «كتاب المقاصد» من **الموافقات**، تصنيفه.

والذي صاغه أبو إسحاق هو القول المرضي، والعطاء الفيضي، تدفق في كتابه تدفق اليعبوب، وملك بحجته، ولين لهجته، الأفواه والأسماع والأبصار والقلوب. وكيف لا وهو الممارس الفهم، اللوذعي الفطن.

وليس لحديث عهد بالدخول في هذا الفن مثلي ـ ولكل داخل دهشة، وفي أفكاره إن هو تكلم رجفة ورعشة ـ إلا أن يحذو حذوه، وينحو نحوه.

وأبو حامد الغزالي؛ وإن لم ينظم هذه النظرية في سلك واحد، أو يضمنها في كتاب مفرد، كما صنع الشاطبي، إلا أنه بسطها في تواليفه، ونشرها في تصانيفه، فبادرت إلى التماسها في كتبه أنى وجدت، وتعقبها حيث ألفيت.

### بدء صياغة النظرية

افتتح الإمام الشاطبي «كتاب المقاصد» من **الموافقات** بمقدمة كلامية قرر فيها شيئين:

**أحدهما**: أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً[1]. وقد تقرر هذا الأصل أيضاً لأبي حامد حسبما بينته من قبل. وهو م ذكره في كتابه **المنقذ من الضلال**، حيث قال: «فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم»[2]. فهذا مما لا كلام فيه.

وإنما الكلام في الشيء **الثاني**: وهو مؤاخذة أبي إسحاق للإمام الرازي، في كونه ينازع في هذه القاعدة. وقد أثبتت بأدلة دامغة تقدم إيرادها أن الأمر على خلاف المظنون، وأن قدم الرجل في التعليل راسخة. فلأترك هذا، ولأشتغل بالمقاصد.

كما هو معلوم فإن الإمام الشاطبي قسم المقاصد إلى قسمين:

**أحدهما** يرجع إلى قصد الشارع، **والآخر** يرجع إلى قصد المكلف.

## أولاً: في بيان ما يرجع إلى مقاصد الشارع في التكليف

جعلها الإمام الشاطبي أربعة أنواع[3]:

### ١ ـ في بيان قصد الشارع في وضع العقيدة

ويشتمل على مسائل:

**المسألة الأولى**: ذكر الإمام الشاطبي في المسألة الأولى من النوع الأول من «كتاب المقاصد»، الذي ترجم له بالعبارة التالية: «في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة»، ذكر «أن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: **أحدها**: أن تكون ضرورية، **والثاني**: أن تكون حاجية، **والثالث**: أن تكون تحسينية»[4].

---

(١) أبو اسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، «كتاب المقاصد،» في: أبو اسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الموافقات**، تحقيق عبد الله دراز (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١)، ج ٢، ص ٤.

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المنقذ من الضلال** ([د. م.]. دار العلم للجميع، [د. ت.])، ص ٣٢.

(٣) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٣ ـ ٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧.

فهذا التقسيم إنما يجري في الأعمال الشرعية.

أما العقائد الإيمانية، أعني معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته، فليست عند أبي حامد على هذا الوزّان، وهي كذلك حسبما بينته الشريعة؛ لأنها جميعاً مهمات وأصول. فليس في العقائد ما يقع في مرتبة الحاجي أو التحسيني، بل جميعها تقع ضرورية. فهذا أصل لا بد من اعتقاده. وإليه الإشارة بقول أبي حامد: «معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصد الأقصى من علوم **القرآن**»[٥].

وصرح في **الإحياء** بأن «حفظ المعرفة على القلوب... ضروري في مقصود الشرائع كلها»[٦].

نعم يلفى في الشريعة هذه الإلهية؛ ما يجري مجرى التتمات والتكملات لهذه المقاصد الضرورية. وبيانه: أن معرفة الله تعالى وتوحيده في ذاته وصفاته وتنزيهه في أفعاله هو المقصود الأعظم حسبما ذكره أبو حامد[٧].

وتم أنواع أخر من آيات الإيمان تغذي عقيدة التوحيد، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى، والتأله في حبه، من التقديس والتسبيح والتوكل عليه والخوف لإجلاله أو لعدله، والرجا في رحمته وفضله[٨].

وقد استظهر أبو حامد في بيان هذا في «كتاب الصبر والشكر»، و«كتاب الخوف والرجاء»، و«كتاب التوحيد والتوكل»، و«كتاب الفقر والزهد»، و«كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا»، وغيرها من كتب **إحياء علوم الدين.**

وهذه هي **المسألة الثانية** الآتية:

ومن أمثلتها: ما ورد في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء،** حيث صرح أبو حامد بأن الدرجة القصوى في التوحيد، هي أن ينكشف للعبد أن لا

---

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٥٨.

(٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوبة،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين،** ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ٤، ص ٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦.

(٨) محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي،** ط ٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧١)، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق أو رزق وعطاء ومنع وحياة وموت، وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه.

فهذا أصل التوحيد، والدرجة القصوى فيه. لكن لا بد له من زوائد هي متمماته. وهي أن لا ينظر العبد إلى غير الله تعالى، بل يكون منه خوفه، وإليه رجاؤه، وبه ثقته، وعليه اتكاله؛ فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض[٩].

فهذا الاعتقاد متمم لتكميل آثار أركان الإيمان. وهذا الذي قلته هنا هو عين ما ذكره أبو إسحاق في المسألة الثانية من أن «كل مرتبة من هذه المراتب ينضم إليها ما هو كالتتمة والتكملة لها»[١٠].

**المسألة الثالثة:** على أن هذا الأصل؛ وهو أن العقائد الإيمانية لا تنقسم إلى الأقسام الثلاثة المذكورة فيما تقدم، ليس يطرد لأبي حامد في سائر أركان العقائد.

وإيضاحه؛ أن الإمام الغزالي، في سياق حديثه عن مسألة التأويل بغلبات الظنون من كتابه **فيصل التفرقة**، قسم التأويل إلى ما يجوز التكفير به، وإلى ما لا يجوز.

فأما ما لا يجوز التكفير به؛ فكتأويل أمر لا يتعلق بأصول الدين ومهماتها، وذلك كقول بعض الصوفية: إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس، وقوله: هذا ربي، غير ظاهرها، بل هي جواهر نورانية ملكية، ونورانيتها عقلية لا حسية، ولها درجات في الكمال، ونسبة ما بينهما في التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس. . .

فهذا الأمر عند أبي حامد لا يتعلق بأصول الدين، ولذلك فلا يكفر فيه ولا يبدع[١١].

---

(٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكل،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(١٠) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ١٠.

(١١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**؛ ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ص ٨٦ ـ ٨٧.

ومن هذا القبيل أيضاً؛ نفي المعتزلة الرؤية عن الله تعالى، فهذا بدعة وليس بكفر[١٢].

وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع.

ومن أمثلته عند أبي حامد؛ إنكار أكثر الفلاسفة حشر الأجساد، وإنكار العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع. فيجب تكفير أصحاب هذا المذهب قطعاً؛ إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد. وكذلك يجب تكفير من قال منهم: إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو لا يعلم إلا الكلمات، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها، وهذا تكذيب للرسول (ﷺ) قطعاً...[١٣].

فلا شك في أن تقسيم أبي حامد العقائد إلى قسم يتعلق بأصول القواعد، فيجب تكفير كل من يغير ظواهرها بغير برهان قاطع، وإلى قسم لا يتعلق بأصول العقائد المهمة، فلا يجب التكفير فيها، دليل على أن بعض العقائد يقع في مرتبة الضروريات، وأن بعضها يقع في المرتبة التي تليها.

وسواء علينا أأسمينا هذه الرتبة بالحاجيات أم بأي اسم آخر، فالمهم أن أبا حامد لا يساوي بعض العقائد ببعض.

وليس في هذا الكلام ما يناقض ما ذكرته في المسألة السابقة.

**المسألة الرابعة**: العقائد الإيمانية تقام أركانها وتثبت قواعدها بأسباب الحفظ لوجودها، وأسباب الدفع لمفسداتها ومهلكاتها.

كلام أبي حامد صريح في أن الله تعالى قد تكفل بحفظ عقائده التي تعبد الخلق بها، بإفادته أسباب ذلك.

وقد أشار إلى هذا المعنى في كتاب **المقصد الأسنى** عند شرحه لاسم الله «المانع»؛ فإنه قال: «المانع هو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان، بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ. وقد سبق معنى الحفيظ، وكل حفظ فمن ضرورته منع ودفع، فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع،

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨٧.

فالمنع إضافة إلى السبب المهلك، والحفظ إضافة إلى المحروس عن الهلاك. وهو مقصود المنع وغايته.

وإذا كان المنع يراد للحفظ، والحفظ لا يراد للمنع، فكل حافظ دافع مانع، وليس كل مانع حافظاً، إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع أسباب الهلاك والنقص، حتى يحصل الحفظ من ضرورته»[14].

فقد تضمن هذا الكلام معنى لفظتي «الحفظ» و«المنع»، وكون الدين محفوظاً من جانبي الوجود والعدم.

فمن جانب الوجود؛ فإن الضروريات الشرعية تجري مجرى الخادم والحافظ للعقائد الربانية. وإلى هذا المعنى يرشد كلام أبي حامد في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد**، فإنه قال: «نظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات، والأمن هو آخر الآفات»[15].

والأعمال الشرعية أيضاً؛ فإنها عند أبي حامد حائمة حول العقائد وتتردد عليها تخدمها.

فبعد أن فسر «الكلم الطيب» في قوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[16] بأنه المعرفة؛ قال ما نصه: «فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم. وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا، ثم إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة»[17].

ومما يجري مجرى الخادم لهذه المعرفة أيضاً؛ جميع العلوم والمعارف.

فقد صرح أبو حامد في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء** بأن معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله؛ «هي الغاية التي تطلب لذاتها؛ فإن السعادة تنال بها، بل هي عين السعادة. . . فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها، ولا

---

(١٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص ١١٤.

(١٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ١٤٨.

(١٦) **القرآن الكريم**، «سورة فاطر،» الآية ١٠.

(١٧) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ١٤٨.

تتقيد بغيرها، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها؛ فإنها إنما تراد لأجلها»[١٨].

فهذا ما يثبت قواعد العقائد ويقيم أركانها من جانب الوجود.

وأما رد أسباب هلاكها والحفظ لها من جانب العدم؛ فهي العقوبات الزاجرة عنها كقتال الكفار وأهل البغي والحث عليه[١٩].

**المسألة الخامسة**: معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وإن كانت تقع في الذروة العليا من المقاصد، وأن كل شيء يراد لها؛ فإنها باعتبار آخر تجري مجرى الوسيلة لغيرها، وذلك لقاء الله تعالى والنظر إليه.

وإلى هذا المعنى يشير كلام أبي حامد في «كتاب التوبة» من **الإحياء**، حيث قال ما نصه: «إنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[٢٠]، أي ليكونوا عبيداً لي، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية، ونفسه بالعبودية، ولا بد أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعني بقوله عليه السلام «الدنيا مزرعة الآخرة». فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين؛ لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال»[٢١].

فهذا الكلام من أبي حامد صريح في أن معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته؛ إنما تراد لنيل سعادة القرب من الحضرة الإلهية.

وقد تضمن بالإضافة إلى ذلك بيان أمرين: **أحدهما** أن المقاصد على نوعين: نوع منهما ما كان مقصوداً بالأصالة؛ وذلك حفظ الدين. والنوع الآخر ما كان مقصوداً بالتبع؛ وذلك حفظ الدنيا. **والثاني**: أن معرفة

---

(١٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٠.

(١٩) الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢٠) **القرآن الكريم**، «سورة الذاريات،» الآية ٥٦.

(٢١) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٢٦ ـ ٢٧.

الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله مقاصد مرعية في كل ملة.

وعاضد هذا مصرح به في **الإحياء**، حيث قال أبو حامد: «فحفظ المعرفة على القلوب... ضروري في مقصود الشرائع كلها»(٢٢).

وهذه هي **المسألة السادسة**.

**المسألة السابعة**: معرفة ذات الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله؛ وإن كانت جميعها مقاصد كلية، إلا أنها ليست عند أبي حامد على رتبة واحدة؛ «بل أنفسها معرفة الذات... ثم يليه معرفة الصفات... ويليه معرفة الأفعال»(٢٣).

**المسألة الثامنة**: العلوم الشرعية منقسمة إلى مقاصد أصلية ومقاصد تابعة؛ فالأصلية الإيمان، والتابعة الأعمال.

قال أبو حامد: «فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل. وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع. فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغني أحدهما عن الآخر، وإن كان أحدهما في رتبة الأصل، والآخر في رتبة التابع»(٢٤).

وفي هذا الكلام أيضاً؛ دليل على أن علوم المكاشفة؛ وهي معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله، أصل لما سواها من المقاصد. وفيه دليل على أن اختلال الأعمال يلزم منه اختلال المعرفة، وفيه دليل على أن وجود المعرفة وبقاءها بالأعمال.

**المسألة التاسعة**: قال الإمام الشاطبي: «كل تكملة فلها ـ من حيث هي تكملة ـ شرط، وهو أن لا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال»(٢٥).

وهذا الكلام على وزّان ما صرح به الإمام الغزالي من أنه لا يجوز أن

---

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٧.

(٢٣) الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، ص ١٣.

(٢٤) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ١١ ـ ١٢.

(٢٥) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ١١.

يعطل أصل المصالح تشوفاً إلى مزاياها وتكملاتها. ذكر ذلك في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد** في الإمام الذي لم يستجمع شروط الإمامة، وهي مبنى من مباني الاعتقاد على ما تقدم إيضاحه. وعبارته: «وإن لم يكن ذلك ـ أي خلع الإمام الذي لم يستجمع الشروط واستبداله بمن هو موصوف بجميع الشروط ـ إلا بتحريك قتال؛ وجبت طاعته وحكم بإمامته؛ لأن ما يفوتنا من المصارفة بين كونه عالماً بنفسه أو مستفتياً من غيره دون ما يفوتنا بتقليد غيره؛ إذا افتقرنا إلى تهييج فتنة لا ندري عاقبتها. وربما يؤدي ذلك إلى إهلاك النفوس والأموال. وزيادة العلم إنما تراعي مزية وتتمة للمصالح، فلا يجوز أن يعطل أصل المصالح في التشوف إلى مزاياها وتكملاتها»[٢٦].

**المسألة العاشرة:** قال الإمام الشاطبي: «كون الشارع قاصداً للمحافظة على القواعد الثلاث الضرورية والحاجية والتحسينية، لا بد عليه من دليل تستند إليه، والمستند إليه في ذلك إما أن يكون ظنياً أو قطعياً»[٢٧].

وقد سلك أبو حامد في المقاصد الثلاثة المذكورة في ما تقدم، أعني: معرفة ذات الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله هذا المسلك بعينه، فبين أنه لا بد عليها من دليل قطعي تستند إليه، وهو استقراء الشريعة. دل عليه شاهد قوله: «إنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله... فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء»[٢٨].

**المسألة الحادية عشرة:** المصالح التي ينظر فيها نوعان:

إما أن تكون في الدنيا أو في الآخرة. وإما أن تكون محضة غير مشوبة بشيء من المفاسد، أو يقترن بها ويتبعها بعض المفاسد.

وكذلك المفاسد؛ فإنها على هذا الوزان. فذلك قول أبي حامد في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء**: «النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه؛ أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في

---

(٢٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: **فضائح الباطنية**، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ١٩٣، و**الاقتصاد في الاعتقاد**، ص ١٥٠.

(٢٧) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٣٧.

(٢٨) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٢٦.

الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما. وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه؛ كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد؛ أما المطلق في الآخرة؛ فالبعد من الله تعالى إما مدة أو أبداً. وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد؛ فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا»[٢٩].

**المسألة الثانية عشرة**: قال الإمام الشاطبي: «المنافع والمضار عامتها أن تكون إضافية لا حقيقية، ومعنى كونها إضافية أنها منافع أو مضار في حال دون حال، وبالنسبة إلى شخص دون شخص، أو وقت دون وقت»[٣٠].

وقد وجدت لهذا الكلام سلفاً؛ وهو ما ذكره الإمام الغزالي في «كتاب الصبر والشكر» من **الإحياء**؛ فإنه قال: «ما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة. فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وطغى، قال الله تعالى: ﴿**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**﴾»[٣١].

وإلى هذا المعنى أيضاً الإشارة بقوله: «وحيث قلنا: إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق المتألم بها؛ فإن لم تكن نعمة في حقه؛ كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم؛ لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار... فإذن؛ قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة؛ إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن؛ في خلق

---

(٢٩) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٦٧.

(٣٠) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٣٠.

(٣١) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، و**القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٢٧.

الله تعالى البلاء نعمة أيضاً؛ إما على المبتلى أو على غير المبتلى»[٣٢].

**المسألة الثالثة عشرة**: في أن الله تعالى يريد الخير لعباده، وأن الشرور المبثوثة في هذه الدنيا مرادة لغيرها لا لذاتها.

وقد عبر أبو حامد عن هذا المعنى بقوله: «والرحيم يريد الخير للمرحوم لا محالة، وليس في الوجود شر إلا وفي ضمنه خير، لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذي في ضمنه، وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذي يتضمنه؛ فاليد المتآكلة قطعها شر في الظاهر، وضمنها خير جزيل، وهو سلامة البدن. ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن، ولكان الشر أعظم. وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر في ضمنه خير. ولكن المراد الأول السابق إلى نظر القاطع السلامة التي هي خير محض. ثم لما كان السبيل قطع اليد لأجله. وكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولاً، والقطع مطلوباً لغيره ثانياً لا لذاته. فهما داخلان تحت الإرادة، ولكن أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره. والمراد لذاته قبل المراد لغيره، ولأجله قال تعالى: «رحمتي سبقت غضبي». فغضبه إرادته للشر، والشر بإرادته. ورحمته إرادته للخير، والخير بإرادته. ولكن أراد الخير لنفسه، وأراد الشر لا لذاته، ولكن لما في ضمنه من الخير»[٣٣].

**المسألة الرابعة عشرة**: المفاسد التي تلحق العقائد ليست عند أبي حامد في مرتبة واحدة. فأعظم المفاسد على الإطلاق «ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر؛ إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله. ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته؛ فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً. ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر»[٣٤].

---

(٣٢) الغزالي، «كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٦٨.

(٣٣) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٤٣ ـ ٤٤، والحديث متفق عليه من طريق أبي هريرة.

(٣٤) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٢٧.

**المسألة الخامسة عشرة: في تعارض المفاسد.**

إذا تعارضت مفسدة التشبيه مع مفسدة التعطيل، فتترك مفسدة التعطيل؛ لأنها الأكثر ضرراً على الخلق.

قال أبو حامد بعد كلام: «فإن قيل: إن كان في المبالغة في التنزيه خوف التعطيل بالإضافة إلى البعض؛ ففي استعماله ـ يعني صلى الله عليه وسلم ـ الألفاظ الموهمة خوف التشبيه بالإضافة إلى البعض.

قلنا: بينهما فرق من وجهين: **أحدهما** أن ذلك يدعو إلى التعطيل في حق الأكثرين، وهذا يعود إلى التشبيه في حق الأقلين، وأهون الضررين أولى بالاحتمال، وأعلم الضررين أولى بالاجتناب. **والثاني** أن علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل؛ إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[٣٥]، وأنه ليس بجسم ولا مثل الأجسام»[٣٦].

## ٢ ـ في بيان قصد الشارع في وضع العقيدة للإفهام

ويشتمل على ثلاث مسائل:

**المسألة الأولى:** ذهب الإمام الشاطبي إلى أن التكاليف الاعتقادية «ينبغي أن تكون من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفهم أو بليداً. فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص، لم تكن الشريعة عامة، ولم تكن أمية، وقد ثبت كونها كذلك، فلا بد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المأخذ»[٣٧].

وهذا المعنى مقرر في أثناء **الإحياء** وغيره.

من ذلك ما أورده أبو حامد في العمل الأول من أعمال الباطن في التلاوة، من الباب الثالث من «كتاب آداب تلاوة القرآن»؛ فإنه قال: «فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن

---

(٣٥) **القرآن الكريم،** «سورة الشورى،» الآية ١١.

(٣٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام،** مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ١٠٥.

(٣٧) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٦٨.

عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته، إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر؟ إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه»[٣٨].

والتكاليف الاعتقادية من جملة القرآن؛ فلا جرم أن تنزيلها على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع الحكيم.

وما لي أستدل بما يحوجني إلى الاستنباط والتأويل؛ فكلمات أبي حامد مصرحة بهذا المعنى تصريحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه. من ذلك ما ورد في كتاب **إلجام العوام عن علم الكلام**؛ حيث صرح ـ رحمه الله ـ بأن أدلة القرآن على معرفة الخالق ووحدانيته، وعلى صدق الرسول، وعلى اليوم الآخر قريبة من أفهام العوام، وهي تنفعهم، وتسكن نفوسهم، وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة. بخلاف قول المتكلمين: إن الأعراض حادثة، ثم الحادث يفتقر إلى محدث؛ فإن تلك التقسيمات والتقديمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام[٣٩].

وقال أيضاً بعد كلام: «فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، وتستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[٤٠].

وقد أورد أبو حامد في كتابه **إلجام العوام عن علم الكلام** أسئلة، ثم أجاب عنها في معرض الانفصال بكلام يدل دلالة واضحة على أن الشارع قاصد إلى وضع العقائد للإفهام.

منها: أن بعض الأخبار؛ ولا سيما المتعلقة بذات الله تعالى، مثل: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»، يوهم ظاهرها جهلاً عند

---

(٣٨) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٩٣.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٨٧.

العامي والصبي، وهذا ينافي قصد الإفهام ويضاده، فلم لم يذكره النبي (ﷺ)؛ بحيث لا يوهم ظاهرها جهلاً في حق أولئك[41]؟

وجوابه: «لأنه إنما كلّم الناس بلغة العرب، وليس في لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعاني، فكيف يكون في اللغة لها نصوص؟ وواضع اللغة لم يفهم تلك المعاني، فكيف وضع لها النصوص، بل هي معان أدركت بنور النبوة خاصة، أو بنور العقل بعد طول البحث»[42].

ومنها: أنه لم لم يكشف الغطاء عن المراد بإطلاق لفظ الإله؟ ولم يقل إنه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا هو في مكان ولا هو في جهة، بل الجهات كلها خالية عنه؟ فهذا هو الحق عند قوم، والإفصاح عنه كذلك، كما أفصح عنه المتكلمون ممكن، ولم يكن في عبارته صلى الله عليه وسلم قصور، ولا في رغبته في كشف الحق فتور، ولا في معرفته نقصان[43].

وجوابه: «من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بأن هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله، ولبادروا بالإنكار وقالوا: هذا عين المحال، ووقعوا في التعطيل، ولا خير في المبالغة في تنزيه ينتج التعطيل في حق الكافة إلا الأقلين، وقد بعث رسول الله (ﷺ) داعياً للخلق إلى سعادة الآخرة رحمة للعالمين، كيف ينطق بما فيه هلاك الأكثرين، بل أمر أن لا يكلم الناس إلا على قدر عقولهم، وقال صلى الله عليه وسلم: «من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم»، أو لفظ هذا معناه»[44].

فبان بهذا أن العقائد موضوعة للإفهام، ولو لم تكن بهذه الصفة موصوفة، لكان ذلك من باب تكليف ما لا يطاق.

وقد تقرر أن المقصود للعبد في الدنيا معرفة الله تعالى؛ فلو كانت معاني صفاته تعالى وأسراره في أفعاله، ومقاصده في سائر عقائده محجوبة عن أفهام الخلق لم يعرفوا الله تعالى، وهو المقصود.

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

**المسألة الثانية**: قول الإمام الشاطبي: «إن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة»[٤٥].

هذا الكلام يضاهي ما سبق لأبي حامد أن نبه عليه في «كتاب التوحيد والتوكل» من **الإحياء**. فبعدما بيّن أنه ينبغي رد ذروة التوحيد إلى حضيض فهم الذي لا يفهم، وسلوك الطريق اللائق بقدر عقله، قال ما نصه: «وقد كلف الله الأنبياء أن يكملوا الناس على قدر عقولهم، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم في المحاورة»[٤٦].

**المسألة الثالثة**: ما صرح به الإمام الشاطبي من أن «الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها. وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود»[٤٧].

قد وجدت له في كلام أبي حامد نظيراً، فذلك قوله: «والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أولاً، فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي؛ فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع، ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم**﴾»[٤٨].

## ٣ ـ في بيان قصد الشارع في وضع العقيدة للتكليف بمقتضاها

تكاليف العقيدة داخلة تحت مقدور المكلف. والدليل عليه من كلام أبي حامد ما ورد في كتاب **المقصد الأسنى**. حيث قال ـ رحمه الله ـ في معرض شرحه لاسم الله «اللطيف» ما لفظه: «ومن لطفه أن يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر؛ فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد»[٤٩].

---

(٤٥) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٤٩.

(٤٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب التوحيد والتوكيل،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٣٣٦.

(٤٧) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٦٦.

(٤٨) **القرآن الكريم**، «سورة الملك،» الآية ٢٢، والغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٨٧.

(٤٩) الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، ص ٨٦.

ونظيره قوله ـ رحمه الله: «ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة»[٥٠].

فهذا الكلام أدل دليل على أن الاعتقادات التي كلفها العبد موضوعة على قصد الرفق والتيسير، بحيث لا يجد الموحد عناء ومشقة في اعتقاداته.

ولو لم يكن الشارع قاصداً إلى هذا؛ لكان تكليفاً للعباد بما لا يطاق، وذلك لا يجوز في شريعة من أرسل رحمة للعالمين.

وعندنا لهذا شواهد من الكتاب العزيز.

قوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[٥١]، وقوله تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾[٥٢].

وأشباه ذلك من الآيات الدالة على المقصود.

## ٤ ـ في بيان قصد الشارع في دخول المكلف تحت تكاليف الشريعة

وفيه مسائل:

**المسألة الأولى**: قول الإمام الشاطبي: «الشريعة بحسب المكلفين كلية عامة، بمعنى أنه لا يختص بالخطاب بحكم من أحكامها الطلبية بعض دون بعض، ولا يتحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف البتة»[٥٣].

قد سبق إلى التنبيه إلى هذا المعنى الإمام الغزالي في مواضع من تصانيفه.

من ذلك ما ورد في «كتاب آداب تلاوة القرآن» من **الإحياء**؛ حيث قال في العمل السابع من أعمال الباطن في التلاوة، والذي سماه «التخصيص» ما نصه: «وهو أن يقدر ـ يعني التالي لكتاب الله ـ أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء، علم أن السمر غير مقصود؛ وإنما المقصود ليعتبر به؛ وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧٥.
(٥١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١٨٥.
(٥٢) المصدر نفسه، «سورة الحج،» الآية ٧٨.
(٥٣) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ١٨٦.

من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي (ﷺ) وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿**ما نثبّت به فؤادك**﴾[٥٤]. فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله (ﷺ) لرسول الله خاصة؛ بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر الله الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿**اذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به**﴾[٥٥]. وقال عز وجل: ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون**﴾. ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم**﴾. ﴿**كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾. ﴿**وابتغوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**﴾. ﴿**هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون**﴾. ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾[٥٦]. وإذا قصد بالخطاب جميع الناس، فقد قصد الآحاد؛ فهذا القارئ الواحد مقصود، فماله ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿**وأُوحيَ إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾»[٥٧].

ويتشعب عن هذا الأصل فوائد:

منها: ما صرح به الإمام الغزالي من أن بعض من يدعي التصوف يتوهم أنه قد «بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة، وحل له شرب الخمرة والمعاصي وأكل مال السلطان. فهذا ممن لا شك في وجوب قتله... وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر؛ إذ ضرره في الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد. وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً؛ فإنه يمنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره. وأما هذا؛ فإنه يهدم الشرع من الشرع، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم؛ إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي

---

(٥٤) **القرآن الكريم**، «سورة هود،» الآية ١٢٠.

(٥٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٣١.

(٥٦) المصدر نفسه: «سورة الأنبياء،» الآية ١٠؛ «سورة النحل،» الآية ٤٤؛ «سورة محمد،» الآية ٣؛ «سورة الزمر،» الآية ٥٥؛ «سورة الجاثية،» الآية ٢٠، و«سورة آل عمران،» الآية ١٣٨ على التوالي.

(٥٧) المصدر نفسه، «سورة الأنعام،» الآية ١٩، والغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» ج ١، ص ٣٩٩.

بظاهره وهو بباطنه بريء عنه، ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الدين»[٥٨].

فأصل هذا التوهم الجهل بمقاصد الشارع في التكاليف.

وانظر أيضاً فيما قاله أبو حامد في فتوى له، ذكرها السبكي **في طبقاته**[٥٩]. وأوردتها في بحثي «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي»، في معرض رده على من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض الفطام عما سوى الله والتجرد له، وأنه إذا حصل هذا استغنى عن التكاليف[٦٠].

**المسألة الثانية**: قول الإمام الشاطبي: «من مقصود الشارع في الأعمال دوام المكلف عليها»[٦١].

وهو يوافق ما صرح به الإمام الغزالي في كتابه **ميزان العمل**؛ فإنه قال: «لا يكفي في نيل السعادة استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل. ولذلك لما سئل رسول الله (ﷺ) عن السعادة قال: «طول العمر في طاعة الله»، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أكثر، والنفس أزكى وأطهر، وكمالها أتم، وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن أشد وأوفر»[٦٢].

فهذا الكلام يبين أن دوام المكلف على العبادات مقصود للشرع. فلا ريب في أن دوام المكلف على أصولها، أعني الإيمان والتوحيد، أولى المقاصد بذلك وأحراها به.

**المسألة الثالثة**: قول الإمام الشاطبي في المسألة السابعة عشرة من النوع

---

(٥٨) الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، ص ٩٠.

(٥٩) تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ط ٢ (بيروت: دار المعرفة، [د. ت.])، ج ٤، ص ١٣٦ ـ ١٤٢.

(٦٠) محمد عبدو، «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي،» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط)، ص ٢١٤ وما بعدها.

(٦١) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ١٨٤.

(٦٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **ميزان العمل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٩)، ص ٦٨.

الرابع: «المفهوم من وضع الشارع أن الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها. وقد علم من الشريعة أن أعظم المصالح جريان الأمور الضرورية الخمسة المعتبرة في كل ملة، وأن أعظم المفاسد ما يكر بالإخلال عليها»[٦٣].

وقد فزع من قبل إلى هذا المعنى الإمام الغزالي، حيث صرح بأن أعظم المصالح في الآخرة درك سعادة القرب من الحضرة الإلهية، وأن أقصى السعادات في الدنيا معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله[٦٤].

وأما أعظم المفاسد في ما يكر على هذه المعرفة بالإخلال، وذلك الكفر.

قال أبو حامد في المرتبة الأولى من مراتب الكبائر: «ما يمنع من معرفة الله ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر؛ إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل... ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته... ويتلو هذه الرتبة: البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض»[٦٥].

**المسألة الرابعة**: قال الإمام الشاطبي في المسألة الثامنة عشرة من النوع الرابع ما نصه: «وجوه التعبدات في أزمنة الفترات لم يهتد إليها العقلاء اهتداءهم لوجوه معاني العادات. (قال): فقد رأيت الغالب فيهم الضلال فيها والمشي على غير طريق. ومن ثم حصل التغير فيما بقي من الشرائع المتقدمة. وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن العقل لا يستقل بدرك معانيها ولا بوضعها، فافتقرنا إلى الشريعة»[٦٦].

وقد نزع من قبل إلى هذا المنزع الإمام الغزالي؛ فإنه قال: «في دقائق سنن الشرع وآدابه، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها»[٦٧].

---

(٦٣) الشاطبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٦٤) الغزالي: «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٢٦، و«كتاب الصبر والشكر،» ج ٤، ص ١٣٤.

(٦٥) الغزالي، «كتاب التوبة،» ج ٤، ص ٢٧.

(٦٦) الشاطبي، «كتاب المقاصد،» ج ٢، ص ٢٣١.

(٦٧) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب العلم،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٤٦.

## ثانياً: في بيان ما يرجع إلى مقاصد المكلف في التكليف

ويشتمل على مسألتين:

**المسألة الأولى**: قول الإمام الشاطبي: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل. فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل»[٦٨].

وهذا الكلام يضاهي ما صرح به أبو حامد من قبل في «كتاب العلم» من **الإحياء**؛ فإنه قال: «وكل من لم يتوجه إلى المقصد ـ يعني العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ـ ولم ينتهض له، أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية، بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين، فله نزل من حميم وتصلية جحيم»[٦٩].

فقد تضمن هذا الكلام بيان أمرين: **أحدهما** أن لا يتوجه العبد إلى المقصد أصلاً البتة، وهو العقائد التي تعبد الله تعالى الخلق بها، فيكون قد ابتغى فيها ما لم تشرع له؛ لأن الله تعالى كلفه اعتقادها والعمل بمقتضاها، وهو قد عطلها. والثاني أن يتوجه إلى المقصد، لكن لغرض دنيوي، فقد ناقض قصد الشارع في عقائده، وهو الامتثال والعبودية.

**المسألة الثانية**: قول الإمام الشاطبي: «إن أحكام الشريعة تشتمل على مصلحة كلية في الجملة، وعلى مصلحة جزئية في كل مسألة على الخصوص. أما الجزئية فما يعرب عنها كل دليل لحكم في خاصته. وأما الكلية فهي أن يكون كل مكلف تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته. فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، حتى يرتاض بلجام الشرع. . . فإذا صار المكلف في كل مسألة عنت له يتبع فيها هواه، فقد خلع ربقة التقوى وتمادى في متابعة الهوى، ونقض ما أبرمه الشارع، وأخر ما قدمه»[٧٠].

وهذا الكلام بحذافيره ـ تقريباً ـ عند الإمام الغزالي في كتابه **فضائح الباطنية**؛ فإنه قال: «الشرع يشتمل على مصلحة جزئية في كل مسألة، وعلى

---

(٦٨) الشاطبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٦٩) الغزالي، «كتاب العلم،» ج ١، ص ٧٦.

(٧٠) الشاطبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣.

مصلحة كلية في الجملة. أما الجزئية فما يعرب عنها دليل كل حكم وحكمته. أما المصلحة الكلية فهي أن يكون كل مكلف تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته، فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، حتى يرتاض بلجام التقوى وتأديب الشرع، وتقسيمه إلى ما يطلقه وإلى ما يحجر عليه فيه، فيقدم حيث يطلق الشرع، ويمتنع حيث يمنع، ولا يتخذ إلهه هواه، ويتبع فيه مناه. ومهما خيرنا المقلدين في مذاهب الأئمة ليستمد منها أطيبها عنده اضطرب القائلون في حقه، فلا يبقى له مرجع إلا شهوته في الاختيار، وهو مناقض للغرض الكلي»[٧١].

فتأمل عبارة أبي حامد وعبارة أبي إسحاق، وتدبر كلماتهما، ثم اقض ما أنت قاض.

فهذا مقدار ما أردت ذكره في هذا الفصل.

وأنا لا أتوهم أني حين أنشأت هذه النظرية أني صنعت «كتاب المقاصد» من **موافقات** أبي إسحاق، وإن سميت مسائلها بما يشبه اسمه، ووسمتها بما يقرب في الحسن من وسمه.

على أني أزعم أن الإمام الغزالي قد حاز قصبات السبق في تحرير الكثير من مسائل هذا الفن وتمهيد قواعده. وبالله التوفيق.

(٧١) الغزالي، **فضائح الباطنية**، ص ٩٩.

# الفصل الثامن

## مقاصد العقائد وطرق معرفتها

### أولاً: مناهج الفرق في كيفية إثبات المقاصد

ختم الإمام الشاطبي «كتاب المقاصد» من **الموافقات** ببيان الجهات التي تعرف منها مقاصد الشرع، فكفى وشفى، وبلغ في الإحسان والإجمال غاية المدى.

وأنا فلن أضرب إلا على غراره، ولن أطبع إلا على قالبه.

ولكن لا بد أن أتقدم قبل ذلك فأفتتح الكلام بمثل ما افتتح هو به؛ وهو بيان مناهج الفرق في كيفية إثبات المقاصد. وهذه الفرق حسبما بينته تصانيف أبي حامد هي: الحشوية، الباطنية، الفلاسفة، الحنابلة، الأشاعرة، المعتزلة، الصوفية.

قال أبو حامد في كتابه **مشكاة الأنوار** ما نصه: «لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة مني في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها، حتى أقول مثلاً: لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله: ﴿**فاخلع نعليك**﴾[1]. حاشا لله؛ فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا جهلاً بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية. فالذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع». وربما نقل هذا عن علي موقوفاً عليه، بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين اطرح

---

(١) القرآن الكريم، «سورة طه» الآية ١٢.

الكونين، فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه، وباطناً بخلع العالمين»[٢].

ولأبي حامد في الباطنية، على الخصوص، كلام في غاية الحسن، أورده في «كتاب العلم» من **الإحياء**؛ فذلك قوله: «وأمر آخر يخصها، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلا الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات، فهو أيضاً حرام وضرره عظيم؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، ويسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ)؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا أيضاً من الوجوه الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم»[٣].

فتحصل من هذا ثلاثة مذاهب: **أحدها** تجريد الظواهر، وهو مذهب الحشوية. و**الثاني** تجريد البواطن، وهو مذهب الباطنية. والمذهب **الثالث** تقرير الظواهر، والغوص على الدرر والجواهر، وهي معاني الشريعة، وأسرار الملة. وهو المذهب الحق والمسلك القصد عند أبي حامد.

وفي القسم مذاهب أخر. فمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا سيما في الظواهر المتعلقة بالذات الإلهية وصفاتها، الاقتصار على السمع المجرد. ولم يثبت عنه سوى تأويل ثلاثة أحاديث، حسبما تبين في القسم الثاني.

وإنما اقتصر الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) على هذه الأحاديث الثلاثة لسببين: **أحدهما** أنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر؛ لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي[٤]. و**الثاني** أنه ـ رحمه الله ـ سلك هذا المسلك لأجل مصلحة الخلق، وتصاوناً عن إقحام العوام ورطة التجسيم. وعنه العبارة بقول أبي حامد: «والظن بأحمد بن حنبل (رضي الله عنه) أنه علم أن الجلوس ليس هو الاستقرار، وأن النزول ليس

---

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **مشكاة الأنوار**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٣١، والحديث سبق تخريجه.

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب العلم،» في: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٤ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج ١، ص ٥٣.

(٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ص ٨٣ ـ ٨٤.

هو الانتقال، ولكنه منع من التأويل حسماً للباب، ورعاية لصلاح الخلق»[٥].

وأما الأشعري والمعتزلي فلزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة. وإن كان المعتزلة أشد توغلاً في التأويلات.

قال أبو حامد يقرر هذا المعنى ويؤكده في «كتاب قواعد العقائد» من **الإحياء**: «وذهبت طائفة إلى الاقتصاد، وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه، وتركوا كل ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية. وزاد المعتزلة عليه حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية، وأولوا كونه سميعاً بصيراً، وأولوا المعراج، وزعموا أنه لم يكن بالجسد، وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط، وجملة من أحكام الآخرة، ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة... وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم. ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة؛ فأولوا كل ما ورد في الآخرة، وردوه إلى آلام عقلية وروحانية، ولذات عقلية، وأنكروا حشر الأجساد، وقالوا ببقاء النفوس، وأنها تكون إما معذبة، وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس، وهؤلاء هم المسرفون. وحدّ الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وجمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه، نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه.

فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد، فلا يستقر له فيها قدم، ولا يتعين له موقف»[٦].

فمن استقرأ هذه النصوص يحصل له القطع الثابت بأن المنهج الصواب عند أبي حامد هو التلفيق بين مقتضيات الظواهر وموجبات البواطن. وعرف أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الباطنية والفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادروا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما

---

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب قواعد العقائد،» في: العزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ١٤٥.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٥.

بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد العقائد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ثم في ثنايا النص الأخير على الخصوص عبارة دالة على أن انكشاف حقائق الأمور الإلهية؛ إنما يتم بنور إلهي، وهو إشارة إلى منهج الصوفية في درك أسرار العقيدة، بل هو منهج أبي حامد ـ رحمه الله ـ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وهذا الطريق الذي تسلكه الصوفية تباينت فيه مناهج النظار من أهل العلم وتخالفهم.

قال أبو حامد في تقرير هذا المعنى ما نصه: «فإن الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون في البحث عن حقائق الأمور، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك، فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت، وظهرت له الحقائق، وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار النية مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة؛ إذ الأولياء والأنبياء انكشفت لهم الأمور وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها، لا بالتعلم، بل بالزهد في الدنيا والإعراض والتبري عن علائقها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له»(٧).

فإذا ما تقرر هذا؛ فأريد أن أذكر الجهات التي تعرف منها مقاصد العقائد عند أبي حامد.

## ثانياً: كيفية إثبات أبي حامد لمقاصد العقائد

### ١ ـ صريح الوحي

المقاصد الثلاثة المذكورة فيما تقدم، أعني: **معرفة ذات الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله**، تعرف من القرآن الكريم، وعنه العبارة بقول أبي حامد: «فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى

---

(٧) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **ميزان العمل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٩)، ص ٤٠.

خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس، فيقول: ﴿**قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد**﴾[8]، وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول: ﴿**الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر**﴾[9]، وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة، فيتلو عليهم سننه في أعدائه وأنبيائه، فيقول: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد**﴾ و﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾[10].

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة؛ وهي الإرشاد إلى معرفة الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده... فهذه أسرار القرآن، ولا تتناهى هذه الأسرار في القرآن»[11].

ومن أوضح ما يستدل به على ذلك أيضاً ما صرح به أبو حامد في «كتاب آداب المعيشة» من **الإحياء**؛ فإنه قال: «اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم... فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب، ومعرفة مصالح الفقه مثلاً فقط دون غيره من العلوم، فضلاً عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه، وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي»[12]؟

فهذا النص يجري مجرى النص السابق، ويعمل عمله في تقرير المعنى وتوكيده.

وقد بان في الفصل السادس (من هذا الكتاب) أن أسرار الشريعة تعرف من طريق النبوة، فلا حاجة إلى الإعادة.

وكذلك ما ورد في **إلجام العوام** عاضد لهذا الكلام. فذلك قول أبي

(٨) **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآيات ١ ـ ٤.

(٩) المصدر نفسه، «سورة الحشر،» الآية ٢٣.

(١٠) المصدر نفسه: «سورة الفجر،» الآيتان ٦ ـ ٧، و«سورة الفيل،» الآية ١ على التوالي.

(١١) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٤، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢.

(١٢) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب المعيشة،» في: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٢.

حامد في البرهان الأول من البراهين العقلية على صحة مذهب السلف في الظواهر المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته: «أعرف الناس بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلى حسن المعاد، هو النبي (ﷺ)؛ فإن ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب؛ إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرار، ومن الذي رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر، وأخبر عنه. ولا يدرك بقياس العقل؛ فإن العقول قاصرة عن ذلك، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدي إلى ما بعد الموت، ولا يرشد إلى وجه ضرر المعاصي ونفع الطاعات. ولا سيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع، بل أقروا بجملتهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة، وهي قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية. وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء، فضلاً عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة»[١٣].

فاتضح بهذا البيان أن مقاصد الشريعة تعرف من طريق النبوة، وأن العقل معزول عن ذلك، ولا سيما في الأمور المتعلقة بالآخرة.

## ٢ ـ تعرف مقاصد العقائد من طريق الصحابة (رضي الله عنهم)

قال أبو حامد في كتابه **إلجام العوام عن علم الكلام**، يقرر هذا المعنى: «أعرف الناس بمعاني كلامه ـ يعني النبي (ﷺ) ـ وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره الذين شاهدوا الوحي والتنزيل، وعاصروه وصاحبوه، بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معاني كلامه، وتلقيه بالقبول للعمل به أولاً، وللنقل إلى من بعدهم ثانياً، وللقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره... (قال) فليت شعري أيتهم رسول الله (ﷺ) بإخفائه وكتمانه عنهم؟ حاشا منصب النبوة من ذلك، أو يتهم أولئك الأكابر في فهم كلامه، وإدراك مقاصده؟ أو يتهمون في معاندته من حيث العمل، ومخالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه؟»[١٤].

فصرح باطلاع الصحابة (رضي الله عنهم) على مقاصد كلام الشارع ومعانيه، وأنهم

---

(١٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ص ٩٢.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٩٣.

ما كتموا شيئاً من ذلك عن الخلق، أو طووه عنهم. فمن تشوف إلى معرفة شيء من مقاصد الشرع، فليطلبها من جهتهم.

ونظير هذا النص مصرح به أيضاً فيها كتاب **إلجام العوام عن علم الكلام**؛ فذلك قول أبي حامد: «جميع موضع الإشكالات في الظواهر فيها حقائق جلية لأرباب البصائر، ملتبسة على العميان من العوام، فلا ينبغي أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة، وإن لم يحرروا ألفاظها تحرير صنعة... لا أعني بأكابر السلف الأكابر من حيث الجاه والاشتهار، ولكن من حيث الغوص على المعاني والاطلاع على الأسرار»(١٥).

## ٣ ـ القرائن

يذهب الإمام الغزالي إلى أن الألفاظ التي أطلقها رسول الله (ﷺ) في ذات الله تعالى وصفاته، ما ذكر لفظة منها إلا مع قرائن وإشارات منبهة على المقصود، يزول معها إيهام التشبيه. وقد أدركها الحاضرون المشاهدون. فإذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن، ظهر الإيهام. وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر، ومن سبقت معرفته بذلك، كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة في نفسه، مقارنة لكل ما يسمع، فينمحق معه الإيهام انمحاقاً لا يشك فيه(١٦).

ويوضح أبو حامد هذا بمثال؛ وهو «أنه صلى الله عليه وسلم سمى الكعبة بيت الله تعالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان، وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه، لكن العوام الذين اعتقدوا أنه في السماء، وأن استقراره على العرش، ينمحق في حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه. فلو قيل لهم: ما الذي دعا رسول الله (ﷺ) إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه، لبادروا بأجمعهم وقالوا: هذا إنما يوهم في حق الصبيان والحمقى. أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه، فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه، بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت، أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه، أليس كان اعتقاد

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٩٩.

أنه على العرش قرينة أفادته علماً قطعياً بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أنه مأواه، وأن هذا إنما يوهم في حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة، فكذلك رسول الله (ﷺ) خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس ونفي التشبيه، وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها، وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام لا يبقى معه شك، وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله وتعيين المراد به، من جملة ما يتحمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى»[17].

فقد فهمنا على القطع بهذا المثال أن الظواهر الموهمة تنقلب عن الإيهام بسبب القرائن الكثيرة التي هي المعرفة لمقصد الشارع الحكيم.

## ٤ ـ المكاشفة

وهي عند أبي حامد من أهم الطرق في معرفة مقاصد العقيدة وأسرارها. ولا يمكن إحصاء النصوص التي صرح فيها أبو حامد بذلك، فلعلها تزيد على مئة قول.

منها ما صرح به ـ رحمه الله ـ في «كتاب العلم» من **الإحياء**؛ حيث قال ما نصه: «المكاشفة. . . عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وتنكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها، فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي. . .»[18].

وناهيك دلالة على ذلك أيضاً ما ورد في «كتاب قواعد العقائد» من **الإحياء** حيث قال أبو حامد ما لفظه: «فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة، وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات، وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق، وبحسب التعرض، وبحسب قبول المحل وطهارة القلب، وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله»[19].

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١٨) الغزالي، «كتاب العلم،» ج ١، ص ٣٧.

(١٩) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: «كتاب قواعد العقائد،» ج ١، ص ١٣٩، وكتاب **كيمياي سعادت** (فارسي)، ج ١، ص ١٢٤.

وحسبنا من ذلك أيضاً ما صرح به أبو حامد في كتابه **الأربعين**؛ فإنه قال: «من أحب معرفة أسرار الربوبية فليلازم باب الله عز وجل بالمحبة والإخلاص والصدق والتعظيم والحياء، والامتثال للأوامر والانتهاء عن المعاصي، والمجاهدة والإقبال بكنه الهمة، والتعرض لنفحاته لقوله عليه السلام: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»[٢٠].

فبان بهذا أن من لازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في القلب بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل، إذ قال: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾[٢١].

فهذه الطرق إن علمناها؛ فإنها تأخذ بيدنا وتدلنا على رشدنا. لكن لا بد من إزالة الحجب والموانع التي تمنع من معرفة مقاصد الشريعة وفهم معانيها، وهي كثيرة حسبما ورد في تصانيف أبي حامد.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله ـ رحمه الله ـ في «كتاب آداب تلاوة القرآن» من **الإحياء**؛ فإنه قال: «أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن؛ لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن»[٢٢].

وحجب الفهم عند أبي حامد ثلاثة:

**أولها**: أن يكون الهمّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكّل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز جل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف؛ يخيل إليهم أنه لم يخرجه من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فكيف يطالع الأسرار؟ وأنى تنكشف المعاني لمن كان تأمله مقصوراً على مخارج الحروف[٢٣].

**ثانيها**: أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر، أو مبتلى في الجملة

---

(٢٠) انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٨، والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية ٦٩.

(٢٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» في: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص ٣٩٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨، والغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، ص ٣١.

بهوى في الدنيا مطاع. فذلك جلي لا يخفى كونه مانعاً من فهم لطائف القرآن واقتباس أنواره.

ويذهب أبو حامد إلى أن الله عز وجل قد شرط الإنابة في الفهم والتذكير. فقال تعالى: ﴿**تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾، وقال عز وجل: ﴿**وما يتذكر إلا من ينيب**﴾، وقال تعالى: ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[٢٤]. فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب[٢٥].

**ثالثها**: وهو عند أبي حامد من الحجب العظيمة عن الفهم؛ وهو التقليد لظواهر معاني القرآن والجمود عليها. ولا يعني به الغزالي التقليد الباطل، بل التقليد الحق أيضاً. وبيانه: أن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له درجات، وله مبدأ ظاهر، وهو كالقشر والمثال، وله غور باطن، وهو كاللباب... فالجامد على الظاهر، الظان أنه ليس وراءه مرقى يرتقي إليه، كيف يتصور أن تنكشف له الأسرار[٢٦]؟

ويوضح الغزالي هذا بمثال؛ وهو «أن الخلق كلفوا أن يعتقدوا أن الله تعالى يرى، ولكن للرؤية ظاهراً وسراً، فمن اعتقد أن رؤية الله سبحانه مناسبة للرؤية التي يألفها الإنسان في هذا العالم، كيف يتصور أن يطلع على سر قوله تعالى ﴿**لن تراني**﴾[٢٧]؟ وكيف يفهم أن ذلك ممتنع في هذه الحياة الدنيا بهذه العين الموقوفة على ملاحظة الجهات والأقطار؟ وكيف يدرك قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾[٢٨]، مع قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة**﴾»[٢٩]؟

فبان بما ذكره الغزالي أن الجمود على ظواهر الشرع كيف ورد مانع من معرفة حقائق هذه العقيدة الإسلامية وأسرارها، كما أن الذي يقصر في التقوى ويتبع الشهوات لا تنكشف له من معرفة الله تعالى، إلا الأسامي دون المعاني.

---

(٢٤) **القرآن الكريم**: «سورة ق،» الآية ٨؛ «سورة غافر،» الآية ١٣، و«سورة الزمر،» الآية ٩ على التوالي.

(٢٥) الغزالي، «كتاب آداب تلاوة القرآن،» ج ١، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢٦) الغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، ص ٣١.

(٢٧) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٤٣.

(٢٨) المصدر نفسه، «سورة الأبصار،» الآية ١٠٣.

(٢٩) المصدر نفسه، «سورة القيامة،» الآيتان ٢٢ ـ ٢٣، والغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، ص ٣١.

# خاتمـــة

وبعد؛ فهذا ما أردت ذكره في هذا الكتاب. وقد جمعت فيه ـ بعون الله ولطفه ـ ما استعظمت من كلام أبي حامد في مقاصد العقائد. ولم يكن درك هذا الوطر جلياً سهلاً يسيراً؛ فقد اعترضت طريقي عقبات ثلاث:

**العقبة الأولى**: أن الحكم على فكر أبي حامد في مقاصد العقائد إنما يصح إذا تم سبر كتبه على الاستقصاء، بحيث لا يتصور أن يشذ شيء منه، والسبر على الاستقصاء التام ليس بالهين، كما لا يخفى.

**العقبة الثانية**: ما ذكره أحد تلامذة حجة الإسلام؛ وهو الشيخ محمد بن يحيى؛ فإنه قال: «لا يعرف الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد أن يبلغ الكمال في عقله»[1].

**العقبة الثالثة**: أن هذا الأمر في نفسه عزيز المرام، صعب المنال، غامض المدرك؛ فإنه في الذروة العليا، والمقصد الأقصى الذي تتحير الألباب فيه، وتنخفض أبصار العقول دون مباديه فضلاً عن أقاصيه. ومن أين لمبتدئ مثلي أن يسلك في ذات الله تعالى، وصفاته الباقيات، وأسمائه التامات، وأفعاله الصالحات، سبيل البحث والتفتيش؟ وأنى تطيق نور الشمس أبصار الخفافيش؟

ومع ذلك؛ فقد جاء هذا الكتاب، بتوفيق الله وتسديده، موفياً بالمقصود، محققاً للمطلوب، ومبرزاً لنتائج مهمة، منها:

١ ـ أن هذا الكتاب قد استظهر في توكيد إمامة الغزالي في المقاصد،

---

(١) أورد هذا الكلام الإمام ابن السبكي في: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ط ٢ (بيروت: دار المعرفة، [د. ت.])، ج ٤، ص ١٠١.

وأنه من العلماء الذين صرفوا جمام العناية في رفع الغطاء عن وجوه أسرار العقائد الشرعية، وكشف الحجاب عن مقاصدها، والتذليل على حكمها ومعانيها.

٢ ـ قد بان على القطع من كلام أبي حامد أن من أراد أن يعرف الله تعالى ويعرف صفاته وأفعاله وغيرها من الأمور الإلهية، دون معرفة مقاصدها ومعانيها، فقد طمع في غير مطمع، وفزع إلى غير مفزع.

٣ ـ أن معرفة مقاصد العقائد الشرعية من الأمهات والأصول، لا من الفضول. والمرء في هذا بين أن يعرف هذه المقاصد فينزه الله تعالى عن الجسمية وعوارضها، أو يجهلها فيخرج العقائد عن المقصود بها.

٤ ـ أن معرفة مقاصد العقائد أعلى المعارف وأشرفها؛ إذ يتعلق بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته.

٥ ـ أن كمال السعادة بقدر معرفة الله تعالى والاطلاع على أسرار الربوبية.

٦ ـ أن مبنى العقائد جميعاً على رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم في الدين والدنيا.

٧ ـ تفصيل الكلام في موقف الغزالي من كبريات المسائل العقدية. وأمهات القضايا الإيمانية؛ مثل: ذات الله تعالى، وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى، وأفعاله سبحانه. . .

فظهر أن مذهب أبي حامد في الظواهر المتعلقة بذات الله عز وجل أنه يجب تأويلها، وكشف الغطاء عن حقائقها، واجتناء أسرارها المدفونة؛ لأنها لو أجريت على ظاهرها لأفضت إلى التشبيه والتجسيم. ومقصود الأسماء والصفات عنده إنما هو التحلي بمعانيها، ونيلها نيل اتصاف. وأما الأفعال؛ فإن الله تعالى لم يخلقها عبثاً، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي المقصود بالخلق.

٨ ـ قد تبين أنه ليس في علم الكلام كشف حقائق العقائد ومعرفتها على ما هي عليه، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف.

٩ ـ أن الإمام الغزالي قد أحرز قصبات السبق في تحرير الكثير من

مسائل هذا الفن وقواعده. وقد تبين هذا على الخصوص من خلال المقارنة التي أجريتها بين أبي حامد وأبي إسحاق.

١٠ ـ تفصيل القول في طرق معرفة مقاصد العقائد، وبيان الموانع التي تمنع عن معرفتها وفهمها، وهي الأكمة التي تمنع من الفهم.

١١ ـ أن فن المقاصد لا ينحصر في مجال الفقه، بل يشمل العلوم كافة، وفي مقدمتها العقائد الإسلامية.

فهذا أهم ما سعى الكتاب في تحقيقه، وهناك نتائج أخرى أوكلتها إلى شاهد لبّكم، ومرهف ذهنكم. فأسأل الله تعالى أن يتجاوز عما طغى به القلم، أو زلت فيه القدم، وأن يشملني بستره، ويعفو عن تقصيري بكرم وجهه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على خاتم النبيين، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، آمين.

# المراجـع

## كتـب

ابن بابويه القمي، أبو جعفر محمد بن علي. **علل الشرائع**. بيروت: دار البلاغة، [د. ت.].

ــــ . **معاني الأخبار**. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٩.

ابن تيمية الحراني، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. **الفتوى الحموية الكبرى**. ط ٢. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ــــ . **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**. تحقيق محمد رشاد سالم. القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٢.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**. تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة. ط ٢. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٦.

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد. **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل (الدين والمجتمع)**. إشراف محمد عابد الجابري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧. (سلسلة التراث الفلسفي العربي: مؤلفات ابن رشد؛ ١)

ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.

ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز. **الإمام في بيان أدلة الأحكام**. تحقيق رضوان مختار بن عربية. بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٧.

ــــ . **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**. بيروت: دار المعرفة، [د. ت.].

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. بيروت: دار الجيل، [د. ت.].

ـــــ . **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**. تحقيق عصام فارس الحرشاني. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **محاسن الإسلام وشرائع الإسلام**. القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

تركي، عبد المجيد. **مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية**. ترجمة عبد الصبور شاهين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦.

الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم. **إثبات العلل الشرعية**. تحقيق ودراسة خالد زهري. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٨.

ـــــ . **نوادر الأصول من أحاديث الرسول**. تحقيق عبد الرحمن عميرة. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢.

الدهلوي، ولي الله. **حجة الله البالغة**. بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٩٠.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **سير أعلام النبلاء**.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **أساس التقديس**. تحقيق أحمد حجازي السقا. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦.

ـــــ . **عجائب القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.

ـــــ . **المحصول في علم أصول الفقه**. تحقيق محمد جابر فياض العلواني. [د. م.]: مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.

ـــــ . **المعالم في أصول الفقه**. تحقيق عادل أحمد عبد الواحد وعلي محمد عوض. بيروت: دار المعرفة؛ دار المناهل للطباعة، [د. ت.].

رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**. ط ٢. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧١.

الريسوني، أحمد. **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**. [بيروت]: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١.

الزركشي، بدر الدين أبو عبد الله محمد. **البحر المحيط في أصول الفقه**. ط ٢. الغردقة، مصر: دار الصفوة، ١٩٩٢.

الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، [د. ت.]. ٤ ج.

السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي. **طبقات الشافعية الكبرى**. ط ٢. بيروت: دار المعرفة، [د. ت.].

السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي. **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠.

السيوطي، جلال الدين. **الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض**. تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد. الإسكندرية: طبعة مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤.

الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى. **الموافقات**. تحقيق عبد الله دراز. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١.

الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد. **كتاب مختصر العدل والإنصاف**. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٤.

العراقي، أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين. **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار**. بيروت: طبعة المكتبة العصرية، ١٩٩٣.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــــ. **إحياء علوم الدين**. القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩. ٤ ج.

ـــــ. ـــــ. بيروت: مطبعة المكتبة العصرية، ١٩٩٢.

ـــــ. **الأدب في الدين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٥)

ـــــ. **الأربعين في أصول الدين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــــ. **الاقتصاد في الاعتقاد**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــــ. **إلجام العوام عن علم الكلام**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــــ. **الإملاء على إشكالات الإحياء مطبوع بهامش إتحاف السادة المتقين للزبيدي**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د. ت.].

ـــــ. **أيها الولد**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٣)

ـــــ. **بداية الهداية**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٥)

ـــــ. **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــــ. **تهافت الفلاسفة**. تحقيق وتقديم سليمان دنيا. ط ٧. القاهرة: دار المعارف، [د. ت.]. (ذخائر العرب؛ ١٥)

ـــــ . **جامع الحقائق بتجريد العلائق**. تحرير م. خ. كازاس اي مانريكه. ابسالا: المكويست ووكسلز، [١٩٣٧].

ـــــ . **جواهر القرآن ودرره**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــــ . **الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ١)

ـــــ . **خلاصة التصانيف في التصوف**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٢)

ـــــ . **الدار الفاخرة في كشف علوم الآخرة**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٦)

ـــــ . **الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل**. تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي. ط ٣. بيروت: دار الجيل؛ القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٩٠.

ـــــ . **رسالة الطير**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــــ . **الرسالة اللدنية**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٦)

ـــــ . **الرسالة الوعظية**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــــ . **روضة الطالبين وعمدة السالكين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٢)

ـــــ . **سر العالمين وكشف ما في الدارين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٦)

ـــــ . **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**. تحقيق عصام فارس الحرشاني. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧.

ـــــ . **شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل**. تحقيق حمد الكبيسي. بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، ١٩٧١. (إحياء التراث الإسلامي، ؛ ٢)

ـــــ . **فضائح الباطنية**. حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.

ـــــ . **فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢.

ـــــ . **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٣)

ـــ . **القسطاس المستقيم**. قدم له وذيله فيكتور شلحت. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٩.

ـــ . **كتاب كيمياي سعادت** (فارسي).

ـــ . **الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٥)

ـــ . **محك النظر في المنطق**. ضبطه وصححه بدر الدين النعساني. بيروت: دار النهضة الحديثة، ١٩٦٦.

ـــ . **مدخل السلوك إلى منازل الملوك**. تحقيق محمد رياض صالح. دمشق: مطبعة العلم، ١٩٦٥.

ـــ . **المستصفى من علم الأصول**. بيروت: دار العلوم الحديثة، [د. ت.].

ـــ . **مشكاة الأنوار**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــ . **المضنون به على غير أهله**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي؛ ٤)

ـــ . **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــ . **المعارف العقلية**. حققه وقدم له عبد الكريم العثمان. دمشق: دار الفكر، [١٩٦٣].

ـــ . **معراج السالكين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦. (مجموعة رسائل الإمام الغزالي)

ـــ . **معيار العلم في فن المنطق**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

ـــ . **مقاصد الفلاسفة**. تحقيق سليمان دنيا. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١.

ـــ . **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

ـــ . **المنخول من تعليقات الأصول**. حققه محمد حسن هيتو. ط ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٠.

ـــ . **المنقذ من الضلال**. [د. م.]: دار العلم للجميع، [د. ت.].

ـــ . **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ـــ . **ميزان العمل**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٩.

ـــــ . **الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي: وقد تضمن أيضاً بيان مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة والمزني**. القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

ـــــ . **الوسيط في المذهب الشافعي**. تحقيق أحمد محمود إبراهيم ومحمد تامر. القاهرة: دار السلام، ١٩٩٧. ٧ مج.

الكيرانوي، حبيب أحمد. **قواعد في علوم الفقه**. بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٩.

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين. **صحيح مسلم**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

النووي، شرف الدين. **صحيح مسلم بشرح النووي**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف. **الدليل والبرهان**. ط ٢. [مسقط]: وزارة التراث القومي والثقافة؛ مطبعة الألوان الحديثة، ١٩٩٧.

## دوريــات

الريسوني، أحمد. «الإمام الغزالي ومقاصد الأسماء والصفات.» **الوطن**: ١٣/ ٤/ ٢٠٠١.

ـــــ . «صفات الله وصفات العباد.» **الوطن**: ٦/ ٤/ ٢٠٠١.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. «جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمذان.» **المنار**: السنة ١١، أيلول/ سبتمبر ١٩٠٨.

## مخطوطـات

عبدو، محمد. «الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي.» (رسالة جامعية، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. «أجوبة الغزالي على أسئلة ابن العربي.» (مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم: ق ٥٥٥).

النبهاني، يوسف بن اسماعيل. **الإستغاثة الكبرى بأسماء الله الحسنى**. (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٥٩٧ د، ورقة ب: ٢٨٧).